

حظيت بشرف المشول بين يدي حضرة صاحب الجلالة المغفور له
الملك فؤاد الأول في ١٤/٥/١٩٢٧ لتقديم هذا الكتاب بجلالته
ولسمو ولي عهده

ولي أسمى الشرف أن أقدم به إلى رجل العدل والحق
حضرة صاحب السعادة عبدالرزاق السنهوري بك وكيل وزارة المعارف

محمد عمر خديج

رئيس قسم الميزانية

١٩٤١/١١/١٩

نال هذا الكتاب جائزة السبق في مسابقة مجلس مديرية الدقهلية
وقرر المجلس تدريسه في جميع مدارس

المطالع في النحو والصرف

انشاء وتاريخ وأرب

تأليف



مدرس بمدرسة البنات الابتدائية بالمنصورة

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

(الطبعة الأولى)

١٣٤٥ هـ = ١٩٢٦ م

مطبعة البغارف ببازاار مصر

مدونة لسان العرب

<http://lisaanularab.blogspot.com>

أهداء الكتاب

إلى الشباب الناهض ، إلى فتيان مصر وفتياتها
إلى طلاب العلم وطالباته

تلك دروسُ النساء وتاريخ وأدب جالت في جنّاتي
فنطق بها لساني ، وقيدّها بنّاتي

وهأنذا أهدىها اليكم ، فهي ثمرةُ اشتغالي بتربيتكم ؟

محمد أحمد خليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فقد سأل مجلس مديرية الدقهلية رجال العلم في مديريته أن يتباروا في تأليف كتاب يسمى (المطالعة العلوية) يشتمل على ما للأسرة العلوية الكريمة من الفضل في إحياء مصر وترقيتها وخص بالذكر أقطابها الثلاثة المرحوم محمد علي باشا والمغفور له اسماعيل باشا وحضرة صاحب الجلالة وليكننا المعظم أحمد فؤاد الأول ليكون ذلك الكتاب نبراساً للناشئة الحديثة يهتدون بنوره إلى معرفة أسباب النهضة المصرية حتى يعرفوا لذي الجليل جميله

ولما كنت ممن يدينون بحب هذا البيت الكريم ويؤمنون بأن جد هذه الأسرة هو باذر بذور الإصلاح في أرض مصر وأن أكثر خلفائه ينسجون على منواله وأن الطلاب يجب أن يتعلموا ذلك استعنت الله وجريت في ميدان المباراة وألفت هذا الكتاب متكباً طريقة تأليف الكتب التاريخية الجافة وانتهجت في تأليفه نهجاً جديداً فجعلته مسائل عامة ودروساً منفصلاً بعضها عن بعض في حياة مصر وسيرها في سبيل الرقي لحة هذه الدروس الحب الخالص والود الصميم لأولياء نعمتنا وسداها

الاذعان البرىء من كل رياء ونفاق وتوسلت إلى العلى القدير برسوله
الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم أن يقينى الزلل ويعصمنى من الخطل
ويهدينى سواء السبيل .

وإنى أحمد الله سبحانه وتعالى على جزيل نعمه وعظيم فضله فقد جاء
هذا الكتاب وفق المرام وخكم له المحكمون بالسبق وبأنه يشترك هو
وكتاب حضرة محمد افندى حافظ فى الجائزة الأولى فقد سد كل منهما
فراغاً خاصاً هذا للمدارس الابتدائية وما داناها وذاك للمدارس الأولية .
وإنى استعين الله فى طبعه ونشره وهو نعم المولى ونعم النصير

(١)

مجدُ مصر القديمُ

لا يُعرفُ بين أمم الأرضِ أمةٌ أقدمُ حضارةً ومدينةً وعِلماً
من مصرَ، وأرقى الأممِ الآنَ تَعنو لمجدِ مصرَ، وتَعترفُ بسبقِها،
وتشهدُ بأنها كانت في عصورِها الأولى، سيدةَ الأممِ، وقبلةَ
أنظارِ الدُّولِ، ومهيبةَ العِلمِ، ومهدَ المدنيةِ، وفراشَ الحضارةِ
الوثيرِ، وتلك آثارُها، وما جادت به قرائحُ علماءها، تنطقُ بأفصحِ
بيانٍ، وأعذبِ لسانٍ، شاهدةٌ بما لها من مجدٍ شامخٍ، وسلطانٍ
عظيمٍ، واستقلالٍ تامٍ.

كان ذلك قبلَ الاسلامِ بنحوِ أربعةِ آلافِ عامٍ، ثم وَخَطَ
الشيبُ رأسَها، وقوَّسَ الكِبَرُ ظَهْرَها، وكاد يقفُ ماءُ الحياةِ
في شرايينِها، ففقدتِ استقلالَها، وسامَها الفرسُ العذابَ حيناً من
الدهرِ، إلى أن خلَّصَها من بينِ براثنِهم الإسكندرُ الأكبرُ،
وأسلمَها إلى خلفائه البطالسةِ، الذين كان شرُّهم أكثرَ من خيرهم،
ولم تلاقِ منهم إلا ضَعْفاً عَلَى ضَعْفٍ، حتى انتقلت إلى أيدي

الرومانِ ، وظلت خاضعةً لحكمهم سبعة قرونٍ ، لقيت فيها من
العذابِ والهوانِ والظلمِ والاستبدادِ ، ما أفقدها كلَّ معاني
الشجاعةِ والاحساسِ الشريفِ .

تلك ألف سنةٍ ، حَكَمَ مصرَ فيها الأجانبُ ، ومَحَى اسمُها
من صحيفةِ الوجودِ ، وأفلَّ نجمُها ، وصار ما كان لها من عزٍّ وسوْدٍ ،
كما حكى عن خيالِ الطيفِ وسنانُ .

وفي السنةِ العشرين للهجرةِ النبويةِ الشريفةِ ، أخذها من
الرومانِ عَنوةً جيشٌ إسلاميٌّ ، يقوده عمرو بن العاصِ ، رضيَ
اللهُ تعالى عنه .

(٢)

مِصْرَ فِي الْعُصُورِ الْوَسْطَى

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر، صارت ولاية إسلامية،
مدة الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، وصدر الدولة العباسية،
يُولَّى عليها الخلفاء الولاية والياً بعد والٍ، وليس يخفى على ذي
اللب أن هؤلاء الولاة ليسوا ملوكاً وإنما هم مأجورون، جلُّ
هم أن يعودوا إلى بلادهم، بعد ترك مناصبهم، وقد غنموا غنماً
عظيماً، وكثروا من الأموال شيئاً كثيراً، لذلك لا يرجى في
عهد مثل هؤلاء أن يرتقى للبلاد شأن، ولا أن تنهض من كبوتها،
بل إنها قد تستسلم للكسل وتستكين للذل، ذلك كان شأنها وهي
ولاية إسلامية نيفاً وثلثمائة وأربعين سنة، ثم أراد الله سبحانه
وتعالى أن تستقل، وأن يكون لها في العالم ذكر فاستقل بها
الفاطميون، ثم الأيوبيون، نحو ثلثمائة سنة، كانت في خلالها
مصر قبلة أنظار العالم الإسلامي، فقد دافع ملوكها عن الإسلام
في هذا العهد دفاعاً عظيماً، ووقفوا في وجه الصليبيين وقفة

اللَّيْثِ الْهَاصُورِ ، وَإِنْ كَانَ مُلُوكُ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ قَدْ اقْتَرَفُوا إِثْمًا
كَبِيرًا ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنْ شِرَاءِ الْمَالِكِ ، وَالاعْتِمَادِ عَلَيْهِمْ
فِي الْحُرُوبِ وَحِفْظِ النِّظَامِ ، وَإِدَارَةِ شُؤْنِ الْبِلَادِ ، حَتَّى صَارَتْ
لَهُمُ الْكَلِمَةُ الْعُلْيَا ، وَصَارُوا بَعْدَ الْأَيُّوبِيِّينَ مُلُوكًا يَحْتَكُمُونَ فِي
الْبِلَادِ ، وَيَعِيشُونَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ .

(٣)

العصرُ المظلمُ

لقد أتى على مصرَ حينٌ من الدهرِ لم تكن شيئاً مذكوراً
غابت فيه شمسُ العلمِ ، وأفلَ نجمُ الإصلاحِ ، وخيمَ الجهلُ على
نواحي الديارِ ونشرتِ المظالمُ والاضطراباتُ ألويتها على رؤوس
المصريين ، وفُقدَ الأمنُ على الأرواحِ والأموالِ ، وانتشرَ الخوفُ
بين الأهلين ، وعمَّ الفسادُ ، وصار السكانُ سلعةً تتحكم فيهم الأجنادُ
وذلك أن المماليكَ الذين جلبهم ملوكُ الدولةِ الأيوبيةِ من بلادِ
الكرْدِ وما جاورها واتخذوهم عبيداً صاروا يتدخلون في شئونِ
البلادِ ويستبدون بالأمرِ ، حتى آلَ ملكُ تلكُ الأمةِ المحيضةِ إليهم ، ولم
يَهْدَبْ نفوسهم مَهْدَبٌ من العلمِ ، ولم يَزَعْها وازعٌ من الدينِ ،
وظلوا يُذيقون المصريين أنواعَ العذابِ ، ويرتكبون في البلادِ
شرَّ المظالمِ ، ثلاثةَ قرونٍ إلا قليلاً ، حتى فتح العثمانيون مصرَ
في أوائلِ القرنِ العاشرِ الهجريِّ ، وولَّوا عليها الولايةَ ، وقبضوا
على زمامها ثلاثمائةَ سنةٍ إلا عشرةً ، لقيت فيها مصرُ من الظلمِ

والاستعباد ، ما لا يكادُ يتصورُهُ عَقْلٌ ، ولا يُصدقُهُ إنسانٌ ،
حتى قلَّ الزرعُ ، وصانق الذرعُ ، وفَتَكَ الجوعُ بالرعيةِ ، وثارَ الناسُ
بعضُهم على بعضٍ ، وعمَّت الفوضى وانتشرت الأوبئةُ ، وأُخِذَتْ
على الأهلىن السبلُ ، ولا مُغيثَ ولا راحمَ . ليت الأمرَ وقفَ
عند هذا الحدِ من ظُلمِ الممالكِ واستبدادِ العثمانيين ، بل إن الله
سبحانه وتعالى سلَّطَ على الأمةِ المصريةِ نابليون بونابرت ، بَطَلَ
فرنسا العظيمَ ، جاءها على رأسِ جيشٍ جرَّارٍ ، ودخلها فاتحاً ، وجالت
جيوشُه في أرجاء الديارِ ثلاثةَ أعوامٍ ، أهلكت فيها الحرثَ
والنسلَ ، وأتت من المظالم ما لا حدَّ لوصفه .

(٤)

الفوضى في مصر وأسبابها

إذا شئت أن تتصورَ ما كان يُقترَفُ في مصرَ من الآثامِ
في عصرِ المماليكِ ، والعثمانيين ، والفرنسيين ، فأعرضُ أمامَ نظركَ
تلكَ الأمورَ ، أنَّ المماليكَ قومٌ جهلاءُ ، لا عهدَ لهم بالعلمِ ولا
بمعاهدِهِ ، وأن لغتهم ليست عرييةً ، وأنهم غلاظُ الطباعِ ، قساةُ
القلوبِ ، منتشرون في أرجاءِ القطرِ ، قابضون على زمامِ السلطانِ ،
مستأثرون بكلِّ ما تجودُ به الأرضُ من حبٍّ ونباتٍ ، وأن
العثمانيين لا يقلُّون عن المماليكِ خشونةً ولا قسوةً ولا جهلاً
ولا غلظةً ، وأن الدولةَ العثمانيةَ كانت تُرهِقُ البلادَ من حينٍ إلى
حينٍ ، بطائفةٍ من جُنْدِهَا البُصاةِ ، تُريحُ منهم بلادَها ، وتُعكِّرُ
بهم في مصرَ الصفاءَ ، وأن الأعرابَ الضارينَ حولَ وادى النيلِ
كانوا يتربُّصُونَ بالمصريين الدوائرَ ، وَيَنْقَضُونَ عليهم ، فيضاعِفُونَ
مصابِئَهم وَيَزِيدُونَ في ويلاتِهِم ، وأن المصريينَ فَقَدُوا كُلَّ

ما كانوا يُعرَفون به من شجاعةٍ ورغبةٍ في الرقيِّ ، وترَبُّوا على الجبن ،
ورَتَعُوا في مَرَاتِعِ الدُّلِّ والهَوَانِ .

إذا عَلِمْتَ ذلك ، سَهِّلْ عليك أن تُدْرِكَ أن مِصْرَ كانت
فريسةً بين أنيابِ الوحوشِ الكاسرةِ ، ومخالبِ الأسودِ الضاريةِ ،
فالملوكُ في إقْلِيمِهِ سَيِّدٌ مُطَاعٌ ، والمِصرِيُّ عَبْدٌ قِنٌّ ، يَعْمَلُ بَيَاضَ
نهارِهِ وسوادَ ليلَتِهِ في حَرْثِ الأرضِ وزَرْعِهَا ، وقد لا يُصِيبُ
عند الحِصَادِ ما يَسُدُّ به رَمَقَهُ وَرَمَقَ أبنائِهِ ، والوُلَاةُ ظالمونَ
غاشمونَ ، لا هَمَّ لهم إلا استلابَ ما في أيدي الناسِ ، وضَرْبَ
الضرائبِ الفادحةِ على السكانِ ، لا يَرْعَوْنَ في ذلك إلا ولا ذِمَّةً ،
والجنودُ مفسِدونَ للنظامِ بِاسْمِ النظامِ ، ومُتَشَبِّهونَ للحُرُمَاتِ ،
ومُزْهِقونَ للأرواحِ ، وهم حُرَّاسُ البلادِ وُجَّهَاتُهَا ، والاعْرَابُ
لا تَنْقَطِعُ غَزَوَاتُهُمْ ، ولا يَنْقُضِي شَرَهُمْ ، والمِصريونَ لا راحَمَ
لهم ولا مُجِيرَ .

(٥)

مِصْرَ تَشْكُو إِلَى اللَّهِ

أَيُّ رَبٍّ وَمَنْكَ الْعَدْلُ ، وَمَنْ خَلَقَكَ الْجَوْرُ ، خَلَقْتَنِي بَحْنَةَ
الدُّنْيَا ، وَمَنْحَتَ أبنائي الأولين عقولاً راجحةً ، وأفكاراً ثاقبةً ،
رفعوا بها ذِكْرِي ، ونشروا ظِلِّي ، وأنفذوا في الممالك أَمْرِي ،
ومدُّوا عَلَى الدُّوَلِ سُلْطَانِي ، ثم سلبتني تلك النعمة ، ورميتني بقومٍ
لَيْسُوا أَكْفَانِي ، جلسوا عَلَى عُروشِ عَوَاهِلِي السَّالِفِينَ ، وفَرَّاعِنِي
الْأَقْدَمِينَ ، فهبطوا بي من سماءٍ عَالِيَةٍ ، إِلَى هَاوِيَةٍ سَحِيقَةٍ ، وعَمَدُوا
إِلَى مَعَاهِدِي الْعَامِيَةِ فَعَمَلُوهَا يَبَاكِبًا ، وَانْقَضُوا عَلَى جَدَاوِلِي وَأَنْهَارِي
فَأَحَالُوهَا سَرَابًا ، وَعَدُّوا عَلَى حُرَيْتِي وَاسْتَقْلَالِي فَأَضَاعُوهُمَا ، وَأَتَوَا
عَلَى كُلِّ مَا كَانَ يَتَصَفُّ بِهَ الْمِصْرِيُّ مِنْ ذِكَاةٍ وَعِلْمٍ وَشَجَاعَةٍ فَمَحَّوْا
آثَارَهُ ، يَا إِلَهِي مَاذَا جَنَيْتُ مِنَ الذُّنُوبِ حَتَّى أَرْسُفَ فِي قِيُودِ
الذِّلِّ دَهْرًا طَوِيلًا ؟ مَاذَا اقْتَرَفْتُ مِنَ الْآثَامِ حَتَّى أُكَبَّلَ فِي أَغْلَالِ
الاستبدادِ قُرُونًا عَدِيدَةً ؟ إِنْ كَانَ أبنائي قَدْ كَفَرُوا نَعْمَتِي وَعَقُّوا
مُلُوكَهُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَارِطَةِ ، فَجَزَيْتَ ذَرَارِيَهُمْ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِي

الآباء ، وسلطت عليهم هؤلاء القساة الظالمين ، فحسبهم ما أصابهم
من انحطاط وتأخير ، حسبهم أن يشتري المملوك اليوم بالدرهم ثم
يكون ملكاً عليهم غداً ، حسبهم أن تصير بلادهم متنى المجرمين
الذين تضيق بهم بلاد العثمانيين ، حسبهم أن تطفأ جذوة العلم في
بلادهم بعد أن كانت كعبة القصاد ، حسبهم أن تمتد يد البلي إلى
آثار آبائهم فتعبت بها وترزع أركانها ، حسبهم ما يكابدون
من جوع وعري وفقدان أمن ، حسبهم أنهم صاروا يساقون
سوق الانعام إلى حيث يريد الغاصبون ، حسبهم كل ذلك ،
وهأندي أستغفرُك لهم ، وأقر بين يديك بأنهم تابوا وآمنوا ،
وماهدوني عهداً أكيداً على ألا ينسوا حقوقى ، ولا يكفروا نعمة
أولى الأمر منهم .

اللهم إنك أرحمُ بهم منى ، فأنقِذهم من هذا العناء ، إنك
دعوف رحيم .

(٦)

المصريون يسألون الله الخلاص

يا إله العالمين ، إنه قد مسنا وأهلنا الضر ، وحل بنا الشقاء ،
ونزلت بنا الويلات من كل جانب ، حتى ألفتنا الذل واستعذبنا
الهوان ، اللهم إنك تعلم أننا أبناء أمة ذات مجد خالد ، وقدم
في المدينة راسخة ، وقد تنكرت لنا الأيام ، وعبس الدهر في
وجوهنا ، وكشر الزمان لنا عن نابه ، فسقانا كؤوس الاستعباد
مترعات ، فأسقينا اللهم جاماً من الحرية التي طالما كانت أرضنا
أخصب منايتها ، اللهم إنا قد ذقنا آلام الاستعمار حتى سئمناه ،
فأذقنا بفضلك طعم الاستقلال الذي هو قوام حياة الشعوب ،
ومنبع تقدمها ورقياً .

يا إلهنا ، ارحم كنانتنا ، واغفر لأبائنا ما قد فرط من عقوبهم
للملوكهم ، حتى أذلتهم على أيدي أعدائهم ، هانحن أولاد جثثك ،
لائذين بحماك ، لاجئين إلى كنفك ، نسألك أن تكشف هذا
الكرب ، وتزيل هذه الغمة ، وتفك قيود أسرنا ، وترزقنا

من لَدُنْكَ فَتَى شُجَاعًا ، يُقِيلُ عَثْرَتَنَا ، وَيُهْلِكُ عَدُوَّنَا . وَيَأْخُذُ
يَدَنَا ، وَيَنْهَضُ بِأَمْتِنَا نَهْضَةً مَبَارَكَةً ، تُعِيدُ لَهَا عِزَّهَا الْقَدِيمَ ،
وَمَجْدَهَا الدَّارِمَ .

اللهم انظر إلى هذا الشعبِ الوديع ، نَظَرَ رَحْمَةٍ وَشَفَقَةٍ ،
وَابْعَثْ فِيهِ مَنْ يَقْطَعُ أَغْلَالَ أَسْرِهِ ، وَيَقُودُهُ إِلَى مَرَاقِي الْفَلَاحِ ،
حَتَّى يَأْخُذَ مَقْعَدَهُ بَيْنَ الشُّعُوبِ ، وَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ وَلَا نَظْنُكَ
إِلَّا فَاعِلًا ، فَسَنَكُونُ لِمَبْعُوثِكَ خَيْرَ مَنْ يُؤْمَرُونَ فَيَأْتَمِرُونَ ،
وَيُنْهَوْنَ فَيَنْتَهَوْنَ ، قَمَا أَعَذَّبَ الرَّضَا بَعْدَ الْغَضَبِ ، وَمَا أَعْظَمَ
النِّعْمَةَ بَعْدَ النِّقْمَةِ ، وَمَا أَكْثَرَ الْمِنَّةَ بَعْدَ الْمِحْنَةِ .



محمد علي باشا

(٧)

نشأة محمد على باشا

في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، ولد بمدينة قولة من أعمال الدولة العثمانية في أوربة مولود غريب الأطوار عجيب الأخبار، يقال له محمد علي، فقد أباه وأمه وهو في مقتبل عمره، وفجر حياته، فعاش يتيمًا فقيرًا، كفله عمه ثم أحد أصدقاء أبيه، فنشأ نشأة تشبه في كثير من الوجوه نشأة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، كلاهما يتيم فقير أمي، يحنو عليه ذوو قرابته وتواسيه حليته غنية بما لها وجاهها، وكلاهما عالي النفس، كبير الآمال، يعد نفسه لأمر خطير، ويروضها على معالجة الشئون العظيمة، ويسبغ بها في الملكوت الأعلى.

هذا يؤهلها لهداية العالم بأسره، وذلك عروش الجبابرة، وتخليص الضعفاء من أيدي الأقوياء، ودعوة الناس كافة إلى عبادة الله، وإرشادهم جميعًا إلى أنهم عنده سواهم، لا يتفاضلون إلا بالتقوى.

وذاك يستعدُّ لِإِتْقَادِ شَعْبٍ مَظْلُومٍ ، وَالْأَخْذِ بِيَدِ أُمَةٍ
مَهِيضَةِ الْجَنَاحِ .

كَانَ وَهُوَ فِي إِبَانِ نَشْأَتِهِ ، وَرَيْعَانِ شَبَابِهِ ، تَحْدِثُهُ نَفْسُهُ .
أَحَادِيثَ عَجِيبَةٍ لَا يَعْلَمُ مَصَادِرَهَا . وَتَتَوَارَدُ عَلَيْهِ خَوَاطِرُ عَظِيمَةٍ
لَا يَعْرِفُ مَا تَتِيهَا ، وَتَمُرُّ أَمَامَ نَظَرِهِ أَشْبَاحُ الْعَظَمَةِ وَصُورُ الْجَلَالِ ،
وَتَجُولُ فِي نَفْسِهِ أَخْيَالُ الْمُلْكِ وَأَبْهَةُ السُّلْطَانِ ، فَلَا يَحْفِلُ بِكُلِّ
أُولَئِكَ ، وَيَقُولُ هَوَاجِسُ وَأَوْهَامُ أَوْ أَصْنَافُ أَحْلَامٍ ، وَمَا دَرَى
أَنَّ الْعَنَاةَ الْإِلَهِيَّةَ ، وَالْإِرَادَةَ الصِّمْدَانِيَّةَ تَخْبِئَانِ لَهُ فِي جَوْفِ
الْمُسْتَقْبَلِ ، عَرْشًا يَطْمُنُّ لِقَدَمَيْهِ ، وَمُلْكًا شَاسِعًا يَعْنُو لِعَظَمَتِهِ ،
وَأُمَّةً هَادِئَةً تَتَخَذُهُ مَنَاطَ آمَالِهَا وَمَهْبِطَ أَمَانِيَّهَا ، ذَلِكَ عَرْشُ مِصْرَ
وَمُلْكُهَا ، وَتِلْكَ الْأُمَّةُ الْمِصْرِيَّةُ الَّتِي سَأَلَتْ رَبَّهَا أَنْ يُحْسِنَ
خِلَاصَهَا مِنْ ظَلَمِ الظَّالِمِينَ .

(٨)

مجلد علیٰ فی طریقہ الی مصر

لما تَأَذَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتعالى لمصرَ أن تستيقظَ من سُبَاتِهَا
العميقِ ، وأن تنهضَ من كَبُوتِهَا ، وتَنْفُضَ غُبَارَ الْفَوَاضِي عَنْ
عَاتِقِهَا ، وتستنشِقَ نسيمَ الحريةِ العليلِ ، رَئِي لِحَالِهَا واستجاب
دُعَائِهَا ، فَأَوْحَى إِلَى الدَّوْلَةِ الْعَلِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ أَنْ تَبْعَثَ بِجَيْشٍ يَقْهَرُ
الفرنسيين الذين دخلوا مصرَ واستباحوا حُرُمَاتِهَا ، وَأَزْهَقُوا
أَرْوَاحَ أَهْلِهَا ، وشَاءَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ جُنُودِ تِلْكَ الْحَمَلَةِ ؛
هَذَا الْفَتَى الَّذِي جَالَتْ فِي نَفْسِهِ خَوَاطِرُ الْعَظَمَةِ ، وَسَنَحَتْ أَمَامَ
بَصَرِهِ سَوَاحِلُ السِّيَادَةِ ، ذَلِكَ هُوَ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ ، وَمَا كَادَ يَرْكَبُ ثَبَجَ
الْبَحْرِ ، وَيُؤَلِّي وَجْهَهُ شَطْرَ مِصْرَ حَتَّى هَتَفَ بِهَا ، لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ،
أَنْتِ الَّتِي لَازَمَنِي خَيَالُهَا ، وَأَرْقَنِي طَيْفُهَا ، وَسَاوَرْتَنِي هُمُومُهَا ؟
أَنْتِ السَّجِينُ الَّذِي طَالَمَا مَرَّ شَبْحُهُ أَمَامَ عَيْنِي فَكَدَّرَ صَفْوِي
وَأَقْلَقَ مَضْجَعِي ؟ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ أَيُّهَا الْأُمَةُ الْكَرِيمَةُ ، هَا أَنْدَا قَدْ
جِئْتُ لِحُلَاصِكَ بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ ، وَسَمِعْتُ

شَكَاتِكَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ عَوَامِلَ الشَّقَاءِ اتَّحَدَتْ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الْفَوْضَى
قَدْ ضَرَبَتْ أَطْنَابَهَا فِي دِيَارِكَ ، وَأَنَّ الْفَنَاءَ يَتَمَشَّى فِي جِسْمِكَ ، كَمَا
يَتَمَشَّى الدَّاءُ الْعَيَاءُ فِي جِسْمِ الْعَلِيلِ الَّذِي لَا يُرْجَى لَهُ شِفَاءٌ ، جِئْتُ
إِلَيْكَ يَجْذِبُنِي حُبُّكَ ، وَيَدْفَعُنِي الْأَمَلُ فِي خَلَاصِكَ ، وَإِنِّي بِعَوْنِ
اللَّهِ مُحِيبٌ دُعَاكَ ، مُحَقِّقٌ رَجَاءَكَ ، فَاصْبِرْ حَتَّى أُعِدَّ لِلْأَمْرِ الْعُدَّةَ ،
وَأَخُذَ لَهُ الْأُهْبَةَ ، وَأَسْتَشِيرَ الْمُحَنِّكَينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَأَسْتَعِينَ
بِأَهْلِ الْإِخْتِبَارِ وَالذَّرَبَةِ ، حَتَّى إِذَا طَعَنْتُ أَعْدَاءَكَ ، كَانَتْ طَعْنَتِي
نَجْلَاءَ ، وَكَانَتْ نَجَاتُكَ مِنْ شَرِّ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ .

(٩)

الفرنسيون في مصر

نابليون بونابرت بطل فرنسا الأوحده ، وفارسها المقدام ،
حارب دول أوربة كلها ، فهزم جيوشها ، ودك عروشها ،
وخضعت له الرقاب ، ودانت له الممالك ، جاء إلى مصر في أوائل
القرن الثالث عشر الهجري على رأس جيش كبير وطائفة عظيمة
من علماء بلاده وفلاسفتها ، وما كاد جنوده يلتحمون بجنود
المماليك المصريين حتى ولّى المماليك الأديار وفرّوا هارين ، وتسلم
نابليون مصر ، وظلّ بها جيشه ثلاثة أعوام وأياماً ، أتى فيها
جنوده من الظلم وأعمال الوحشية ما لا يكاد يخطر على بال ، أما
العلماء فقد بحثوا في آثار مصر وتقبّوا ، حتى اهتدوا إلى حل
رموز الكتابة المصرية القديمة ، وعادوا إلى ديارهم بثروة من
العلم وفيرة .

جاءت جيوش الدولة العثمانية ، فأثقلت مصر من شرّ
جيوش الفرنسيين ، وقبضت على زمام البلاد ، عند ذلك برز

إلى مَيْدَانِ الْعَمَلِ فَتَى الْفِثْيَانِ ، مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ ، فَقَدْ قَرَأَ رُؤُوسًا وَهَينَ
مَلَامَحَ عَيْنِيهِ آيَاتِ الذِّكَاةِ ، وَلَحُوا عِلَامَاتِ الْإِخْلَاصِ ، فَرَفَعُوا
شَأْنَهُ ، وَنَشَرُوا ذِكْرَهُ ، وَصَارَ يَرْتَقِي مِنْ مَنْصِبٍ إِلَى مَنْصِبٍ ،
وَيَتَخَطَّى الْأَعْنَاقَ عُتْقًا عُنُقًا ، وَهُوَ فِي كُلِّ دَارٍ حَلٌّ بِهَا ، وَبَيْنَ كُلِّ
عَشِيرَةٍ خَالِطٌ بِهَا ، ظَافِرٌ بِحُبِّ عَشْرَائِهِ وَإِعْجَابِهِمْ ، وَلِذَلِكَ كَانَ مَوْضِعَ
ثِقَتِهِمْ ، وَتَحَلَّى إِجْلَالِهِمْ ، يُؤَلِّيهِمْ شَفَقَةً وَحَنَانًا ، وَيُؤَلُّونَهُ وَدًّا
وَإِذْعَانًا ، فَالْجُنُودُ بَلَغَ حُبُّهُمْ لَهُ مَبْلَغَ الْعِبَادَةِ ، وَالْأَهْلَاءُ شَخَّصُوا
بِأَبْصَارِهِمْ إِلَيْهِ ، وَتَمَنَّوْا الْإِخْلَاصَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَهَكَذَا سَيَّطَرَ عَلَى
الْقُلُوبِ ، وَجَلَسَ عَلَى عَرْشِهَا ، وَقَبِضَ عَلَى أَرْزَمَتِهَا .

(١٠)

ولاية محمد علي باشا على مصر

جاء محمد علي باشا أرجاء مصر ، وغشى مجالسها وحادث
سكانها ، وأصغى إلى شكاياتهم ، ونظر في أخلاق أهلها وطبايعهم ،
وما خلف آباؤهم من آثار خالدة وتاريخ مجيد ، وجال في غدواته
وروحاته برقة أرضها ، فوجد ترابها تبرا ، ونهرها كوثرا ،
ونظر نظرة في نجومها وجوها ، فألقى بسماءها صافية الأديم ،
وهواءها نسيما عليلا ، ورأى العنصر المصري مع ذلك تتقاذفه
رياح من الظلم هوجاء ، وتجاذبه قوى مختلفة ، وتحتكم في حرته
وفي خيرات بلاده طوائف متباينة ، لا تفكر طائفة منها في
رقى مصر ، ولا في سعادة المصريين .

أعظمه ذلك ، ووقع منه كل موقع ، وامتلا قلبه شفقة على
هذا الشعب الهادي المستكين للظلم والاستبداد ، فأخذ يفكر
في طريقة إتقاذ هذه الأمة من شر الظلم والظالمين ، وصار ينصر
المصري ويأخذ بيده إذا رأى العذاب ينصب على رأسه ، وكذلك

صار يتجيبُ إلى الجند كبيرهم وصغيرهم ، فتعالم المصريون والجنودُ
أمره ، وتمنى الأولون أن يكون هذا الرجلُ هو الذي طالما نشدوه
لإتقاذهم ، وعقد الآخرون الخناصرَ على مناصرتِهِ والانضواء تحتَ
لوائِهِ إذا همَّ بأمرٍ خطيرٍ .

وهكذا سرى هذا الاسمُ الكريمُ في طولِ البلاد وعرضِها
سريانَ الكهرباءِ ، وأحبه المصريون حبًّا دونه حبُّ الأبناء لأبيهم ،
وتجمعوا يشاورُ بعضهم بعضًا في أمرِ هذا البطلِ العظيم ، وكيف
يؤلونه أمرهم ويسلمونه زمامهم ، فنطقت ألسنتهم بما استكن
في أفئدتهم ، ونادوا به واليا على بلادهم ، رَضِيتِ الدولةُ العثمانيةُ
أو غَضِبتْ ، وأقبل الجنودُ والضباطُ ، يُقدِّمون بين يديه طاعتهم
ومُظَاهَرَتَهُمْ .

(١١)

خواطرُ محمد علي باشا

أُحِبُّتُ هَذَا الْبَلَدَ وَأَهْلَهُ فَأُحِبُّونِي ، وَأَوَّلِيَتْهُمْ عَطْفِي فَوَلَّوْنِي
وِلَايَةَ أَمْرِهِمْ ، وَقَدْ صَارَ حَتْمًا عَلَيَّ أَنْ أُحَقِّقَ رَجَاءَهُمْ وَأُجْزِيَهُمْ أَجْرَ
مَا صَنَعُوا ، وَلَكِنْ مَا الْحِيلَةُ ؟ وَهَؤُلَاءِ أَعْدَائِي وَالْمُنَافِسُونَ لِي مِنْ
رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، يُؤْغِرُونَ صَدْرَهَا وَيُلْقُونَ فِي رُوعِهَا أَنِّي وَلِيْتُ هَذَا
الْأَمْرَ بِغَيْرِ إِرَادَتِهَا ، فَأَنَا بِالْعَاصِي لَهَا أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْمُطِيعِ ، وَهَؤُلَاءِ
الْمَمَالِكُ وَسَادَاتُهُمْ فِي الْبِلَادِ يَطْمَعُونَ فِي اسْتِرْجَاعِ مُلْكِهِمْ ،
وَإِعَادَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَيَقْفُونَ عَقِبَةَ كَثُودًا فِي وَجْهِهِ مِنْ يَسِيرٍ بِمَصْرٍ
إِلَى الْأَمَامِ ، وَهَؤُلَاءِ جُنُودِي شَرَّادِمُ مِنْ جَيْشِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ،
مُخْتَلِفَةُ الْمِيُولِ ، مُتَفَاوِتَةُ الْأَهْوَاءِ ، اللَّهُمَّ إِنْ الْحِمْلَ ثَقِيلٌ وَالْعِيبَ
عَظِيمٌ فَارْزُقْنِي فِي كُلِّ ضَيْقٍ فَرَجًا ، وَفِي كُلِّ عُسْرٍ يُسْرًا ، لَا بَدَّ
مِنَ الدَّهَاءِ حَتَّى أُخْرِجَ مِنْ هَذِهِ الْمَآزِقِ .

أَمَّا الدَّوْلَةُ وَرِجَالُهَا فَأِنِّي بِأَسْطُكُنِّي لَهُمْ بِالْعَطَاءِ ، وَمُعَادٍ مِنْ
يُعَادُونَ ، وَمُصَالِحٍ مِنْ يُصَالِحُونَ ، حَتَّى أَنْالَ رِضَاهُمْ وَمَعُونَتَهُمْ .

وأما الجنودُ فإني مُسلِّطُ الموالينَ منهم على المعادين ، ومُعِينُ
المُطيعين على العصاة ، حتى أُطهرَ البلادَ من الفتنِ ، وأريحَ العبادَ
من عذابٍ مُقيمٍ .

وأما المماليكُ فخيرُ لي أن أُولِيَهُمْ ، وأُظهرَ لهم وُدِّي ، ولا
أُقِفَ في وجهِ أطماعِهِمْ ، وقد أَسْتَشِيرُهُمْ في بعضِ الشئونِ حتى
يَطْمَئِنُوا إِلَيَّ ، ولا يأخذوا حذرَهم مني ، ولا يُعِذُوا في طلبِ الملكِ ،
راضياً كلُّ مملوكٍ منهم بسيادته على إقليمه ، وجبروته على خَدَمِهِ
وحشمِهِ من المصريين ، ثم لأُدَبِّرَنَّ لهم مَكِيدَةً تَأْكُلُ لحومَهُمْ ،
وتَبْرِئُ عِظَامَهُمْ ، وتكونُ جزاءً وفِاقاً لما اقترفوا في مصرَ من
الذنوبِ ، وما اتَّصفوا به من جهلٍ فاضحٍ ، وكِبَرٍ مردولٍ .

هناك يتسنى لي بَذَرُ بُذورِ الإصلاحِ في مصرَ ، وهنا لك
أَمَلٌ أن تخضرَّ هذه البذورُ وتنمِيَ نَمَاءً عَظِيماً ، وتؤثي أَكْثَلَهَا
كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، إنه نِعَمَ المولى ونِعَمَ النصيرِ .

(١٢)

عاقبة ظلم المماليك

قضى الله ولا راد لما قضاه، أن تحكم مصر طائفة المماليك العاتية، التي جلب آباؤها سلاطين الدولة الأيوبية، نحواً من ثلاثة قرون، وأن يعيش بين ظهرا نى أهلها رؤساء تلك الطائفة، منتشرين فى الآفاق مستأثرين بخيرات البلاد، مستبدين بالأمر فى السكان أيام حكم العثمانيين، فلما قبض المصلح الكبير محمد علي باشا على زمام الأمر فى مصر، واتجهت نيته إلى الإصلاح، لم يكن ما يقف فى وجه إصلاحه إلا هؤلاء الطغام، الذين هم أعداء النظام والعلم والمدنية، الذين ألفوا الجهل والفهم واستحبوا العمى على الهدى، وظنوا المصريين عبيداً لهم، يستخرونهم فى حرت الأرض وزرعها لإشباع مطامعهم وسد مأربهم، فكان كلما رأى أن يحارب جهلاً أو ينظم جيشاً مثلاً، رأوا فى ذلك خطراً على أنفسهم وسلطانهم، وإذا فكر فى إحلال المساواة والعدل بين من تقلبهم أرض مصر وتظلمهم سماؤها، خافوا أن يتقلص ظلمهم وطغيانهم، فخلا بنفسه ووزن الأمر بميزان الحكمة

والعقل ، فبدا له أن يُرِيحَ الْقَطْرَ من تلك الطائفة الفاجرة ، دون
أن يُعْرِضَ البلادَ لفرَجِ الحربِ وهَلَعِ القتالِ .

وكانت قد قامت في بلادِ العربِ قُنَّةُ الوهابيين الذين شَقُّوا
عَصَا طاعةِ الدولةِ العثمانية ، وهي في شُغْلٍ عنهم بمحاربة أعدائها
الأورُتيين ، فأُنابت عنها محمدُ عليّ باشا في تأديبِ هؤلاء العصاة ،
وإخضاعِهم لسلطانها ، فأذعنَ للأمرِ ، وجيَّشَ جيشاً عَرَمَماً
جعلَ امرأتهُ لابنه طوسونَ ، فلما حانَ موعدُ سفرِ هذا الجيشِ ،
دعا محمدُ عليّ باشا سادةَ البلادِ (وسادتها المماليكُ) ، لشهودِ الاحتفالِ
بتسفيرِ هذا الجيشِ المُظَفَّرِ ، فأخذوا زينتهم وجاءوا على بَكْرَةٍ
أبيهم ، وانتظمَ جَمْعُهُم في القلعة ، ثم ساروا في موكِبٍ مهيبٍ نحوَ
المُعسكرِ ، حتى إذا انتظموا في سيرهم ، وجَرَى القضاءُ لغايته ،
أُوصِدَتِ الأبوابُ من خلفهم ومن أمامهم ، وصدرت إشارةُ خفيةٍ
إلى جنودِ أعدائِهِم لذلك ، أنْ أَعْمَلُوا سِيوفَكم في رِقَابِ هذه الطائفةِ
الباغية ، وأثخنوا فيهم ضرباً وتقبيلاً .

وما هو إلا أن مرَقَّتِ السِّهَامُ ، ولمعت الأَسِنَّةُ ، وبرَقَّتِ
الأبصارُ ، وتطايرتِ الرؤوسُ وكانَ القومَ ما كانوا .

ثم مضى جيشُ طوسونَ لشأنه ، فأخضعَ الثائرينَ في الحجازِ ،
وجعلَ كلمةَ الدولةِ هناك العُليا ، وكلمةَ الوهابيين السُفلى .

(١٣)

المصريون يشكرون لمحمد على باشا

ما كاد ينتشرُ في نواحي الديارِ خبرُ المكيدةِ التي دبرها البطلُ
العظيمُ لإبادةِ المماليكِ ، حتى طفحتْ وجوهُ المصريين بالبشرِ ،
وراحوا يهنئُ بعضهم بعضاً ، وأقيمت في البلادِ معالمُ الأفراحِ ،
وسجدَ الناسُ شكراً لله عَلَى نعمةِ انتقضاءِ الظلمِ وانتقراضِ عهدِ
الظالمينِ ، وتألّفت الوفودُ من كلِّ إقليمٍ ، وشخصتْ إلى القاهرةِ ،
لتعلنَ فرحَ البلادِ بأسرها ، وتشكرَ لهذا الوالدِ الرحيمِ حُسْنَ
بلائه وعظيمَ عنايتهِ بهذا الشعبِ الضعيفِ ، وكأَنِّي بهم وقد مثَّلَ
بين يديه عميدُهم ، يقولُ له « أَيُّها القائدُ العظيمُ ، جئناكَ ناثبين
عن أبناءِ هذه الأمةِ ، رجالها ونساءها ، شبيها وشبابها ، فتيانها
وفتياتها ، في إظهارِ الفرحِ والسرورِ وإعلانِ الحمدِ والثناء ، عَلَى ما
أُولَّيْتَنَا وتُولِينَا مِنْ نِعَمٍ متواليةٍ ، وَمِنْ متواصلةٍ ، فقد أصبحنا
آمنينَ عَلَى أرواحنا وأموالنا ، بعد أن فَقَدْنَا هذا الأَمْنَ حيناً من
الدهرِ طويلاً ، وصرنا نشعرُ بأن لنا إرادةً بعد أن كُنَّا نُسَاقُ سَوْقَ

الأنعام ، وها نحن أولاء نستقبل عهداً جديداً على يدك ، نرجو
أن تستعيد فيه بلادنا مجدها الغابر ، وعزها القديم ، وأنت إذا
كنت قد قتلت هذه الفئة الباغية لتنجي المصريين من ظلمها ،
وليتسع أمامك سبيل الإصلاح ، فذلك ما ترجوه بلادنا منذ
أمد بعيد ، على أنك قتلت جماعة قليلة لتُحيى أجيالاً عديدة قد
يكون لها في جوف المستقبل شأن عظيم » وكأني به يستقبل
هؤلاء المهتئين بابتسامة عذبة ، ويقول لهم « ها هي ذى بلادكم
كاد يحقق عليها علم السلام ، بعد أن كانت مسرحاً للحروب
والفتن الداخلية والنهب والسلب دهرًا طويلاً ، وإني أسأل الله
سبحانه وتعالى الذي وفقني لانتباهها من وهديتها ، أن يوفقني
للسير بها في سبيل الرقي ، حتى تصل إلى ما أحب وتحبون من
سعادة دائمة وعزٍّ مقيم .

(١٤)

الشُّورَى والإِصْلَاح

الشُّورَى مبدأ من مبادئ ديننا الحنيف، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، باستشارة أهل الرأي وذوى الخبرة من وجوه المسلمين وساداتهم، وذلك قوله «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» وقوله «وَأْمُرْهُمْ شُورَى يَنْبَنِيهِمْ» وهاهنا ذى دُولُ الغرب رأت بعد طول التجربة والاختبار، أن خير أنواع الحكم، ما كان الأمر فيه شُورَى بين أولى الآراء الحازمة، والعقول السليمة.

وإنَّ أولَ يومٍ بزغت فيه شمسُ الشُّورَى في الديار المصرية، لهو اليوم الذى اختار فيه محمدٌ عليّ باشا نواباً من أبناء مصر، كالشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم، ومن لف لفهما، يستضىء في الأمور بأرائهم، ويهتدى بهديهم، فقد ألفت جماعة الشُّورَى من علماء الأزهر الشريف الذين هم أمناء على مرافق الأمة، وقدراء على نفعها بأرائهم السديدة، وبسط أمام أنظارهم وجوه الإصلاح التى لا تقوم لبلاדם بدونها قائمة، وأراهم أن مصباح العلم فيها

خاب، وأن التجارة كاسدة، والزراعة مهملّة، والصناعة متأخرة،
وأن القوم قد ألقوا الفوضى والهمجية في جميع شئون حياتهم،
وأن تغور بلادهم مفتحة الأبواب لكل غاصب، وأنها على الجملة
تركة مثقلة بالديون الفادحة، وأن إصلاح كل ذلك، يتطلب مالا
كثيرا، وجهدا عظيما، ويستلزم أخذ الأمة بالشدة، حتى تتخلع
ثياب الذل والكسل، والجبن والجهل، وتلبس من الحرية والنشاط
والشجاعة والعلم ثوبا قشيبا، ثم سألهم أن يكونوا له عوناً على
اجتياز تلك العقبات، وأن يمنحوا بلادهم جزءا من وقتهم، يبحثون
فيه عن أمثل الطرق، وأسهل السبل، لترقيتها والبلوغ بها إلى
درجة الكمال، فامثلوا أمره، وكانوا كلما بدت منه قسوة على
المصريين عند تشبثهم بالقديم، ونفورهم من الأنظمة الحديثة،
يُصرونهم بما في النظام الجديد من خير يعود عليهم، وعلى ذريتهم
وبهذا اعتبر فارسا لشجرة الحكم النيابي في مصر التي تسلمها
حفيدة إسماعيل باشا، ثم جلالة مولانا أحمد فؤاد الأول، فتعدها
حتى جرى ماء الحياة في أغصانها، واخضو ضر الورق في أفنانها،
وتدلت ثمارها، وها نحن أولاء نجني جناها الدائم، ونقطف
قطفها الدانية.

(١٥)

الزراعة (١)

وادی النيل من أخصب بقاع الأرض وأصلحها لإنبات
كثير من النباتات، وجوؤه ملائم لتنمية خير الأشجار، ونهره
عذب فياض، وأهله يتوارثون صناعة قليج الأرض وزرعها
كأبرأ عن كابر، ومن شاء أن ينهض بمصر إلى سماء المجد، ويسير
بها في طريق الفلاح، ويملا خزائنها ذهباً وهاجاً، فليجعلن
نصب عينه إصلاح زرعها واستثمار أرضها، وهو بعد ذلك وأصل
بها إلى أشمى غايات الرقي والنجاح.

تجلت هذه الحقائق لبطلنا الكبير محمد علي باشا، عند ما
أخذ على عاتقه تحرير مصر من رق العبودية، ونشر مبادئ
المدنية الحديثة في ربوعها، وعرف أن قوام الإصلاح المال، وأن
كنوز مال هذه البلاد في خصب أرضها، وأن ثرائها التبر
الخالص، ونهرها الذهب المذاب، فأتجهت نيته لهذا الإصلاح
ليعد المال ويتنى إصلاحه على أساس متين، وليس خافياً أن ترقية

الزراعة تستلزم تنظيم طرق الري والصرف ، والعناية بتربية
الماشية ، وجلب أحسن أنواعها ، وانتقاء البذور ، وتشجيع الزراع
وارشادهم إلى خير الوسائل لإثراء النبات ، وإنشاء الآلات الزراعية ،
وإصلاح طرق النقل والاتجار فيما زاد عن حاجة البلاد مما
تجود به الأرض .

فَكَرَ هذا المصلح في كل ذلك ، وأعدَّ لكل شيء عُدَّتَهُ ،
وقام بكل ما يدعو إلى نموِّ الزراعة ، واتساع حقولها ، فاهتزَّت
الأرض وربَّتْ وأنبَتْ من كلِّ زوج بهيج ، ولا يظُنُّ أَحَدٌ
أن ذلك كان دون أن يَلْقَى المصريون من الهول والبُشْدَةِ ، ما
تَقْشَعِرُّ منه الأبدانُ ، وتنفَتُّ له الأكبادُ ، فقد أَلْفُوا الكسلَ
ورَضُوا بالقليلِ ، واستعذبوا الراحةَ في ظِلِّ الفقرِ والخبولِ ، فما
أَجْدَرَهُمْ أن يساقوا إلى مناهلِ الخيرِ بالسِّياطِ ، وأن يُرَغَّمُوا عَلَى
ولوجِ أبوابِ السعادةِ إِرْغَامًا .

(١٦)

الزراعة (٢)

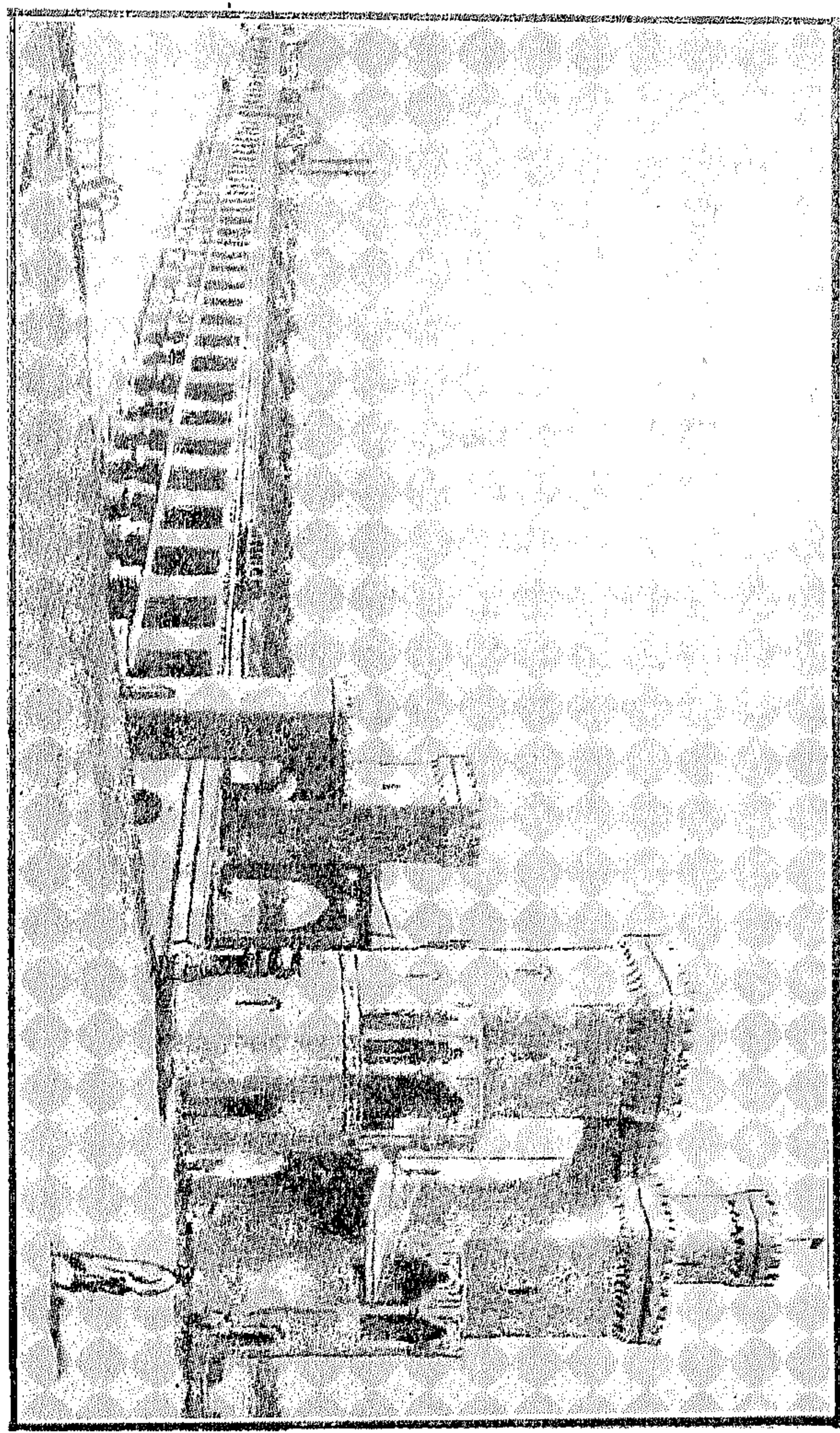
لم تلقَ الزراعةُ في مصرَ من خلفاءِ محمدٍ عليٍّ باشا عنايةً
تسيرُ بها في الطريقِ التي مهَّدها لها ، بل لقد أهملَ شأنُها حتى
عاد الزُّراعُ إلى حالتهم الأولى من الكسلِ والإهمالِ ، وتُرِكَتِ
الجداولُ التي أنشأها محمدُ عليٍّ باشا يتراكمُ فيها الطينُ طبقاتٍ
بعضُها فوقَ بعضٍ ، حتى ارتفعتُ قيعانُها ولم تعدْ صالحةً لإرواءِ
الأرضِ كما كانت ، ولا شكَّ أن الزُّرعَ لا ينبي ولا يترعرعُ ،
إلا إذا سَهلت طرقُ الريِّ والصرفِ ، لذلك كان طبعياً أن تنحطَّ
الزراعةُ في مصرَ التي لم يُعَنَّ أهلُها بجرثِ الأرضِ وزرعِها إلا
بعد أن أُكْرهُوا على ذلك إكراهاً .

ولو لا أن تَدَارَكَ اللهُ جلت قدرتهُ هذه الأُمَّةَ بلطفه ، وبعث
فيها رسولَ الإصلاحِ ، ونصيرَ المدنيةِ والحضارةِ ، المغفورَ له
إسماعيلَ باشا ، جَلَفَ ماءَ حياتِها ، ونَضَبَ معينُ ثرائِها .

جاءَ مصرَ ولم تنضجْ عقولُ أهلِها فيعرفوا ما يضرُّهم وما
ينفعهم ، وعرف أن منبعَ ثروتهم في زراعتهم ، وأنه من العبثِ

أن يُحاولَ تَمْدِينَ مِصرَ وتَحْضِيرَها ، قبلَ أن يُعْنَى بِالزَّرَاعَةِ عِنايةً
تَجْعَلُ ثَمَرَاتِها كَافيةً لِإِشْشاءِ مُرافقِ الحِياةِ في مِصرَ ، فبدأ بِطَرِيقِ
الإِرواءِ فَنظَّمْها ، ثُمَّ أَخَذَ يُصْلِحُ مَوَاتِ الأَرْضِ ، وَيَسوقُ المِصرِيِّينَ
إِلَى زَرْعِها سَوقاً ، وما هُوَ إِلَّا أنْ بَدَتْ مِصرُ جَنَّةً تَجْرى مِنْ
تَحْتِها الأَنْهَارُ ، وَأَخَذَ المِصرِيُّ يُجْنِي ثِمَارَ تَعْبِهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى العَمَلِ
مَنْ تَلَقَّاهُ نَفْسِهِ ، وَعَرَفَ أنْ مَنْ بَذَرَ حَصَدَهُ ، وَمَنْ جَدَّ وَجَدَ .
هَكَذا تَرَكَ إِسْماعِيلُ بِاشاً مِصرَ والزَّرَاعَةَ قِوامُ حِياتِها ، وَعِمادُ
تَرْوِثِها ، وهَكَذا سارتِ الزَّرَاعَةُ في مِصرَ سِيراً طَبِيعِيّاً ، في طَرِيقِ
النَّماءِ والتَّدرُّجِ ، حَتَّى أَشْرَقَتِ شَمْسُ مُلِكِنَا الأَعْظَمِ ، أَحْمَدُ فُؤادُ
الأَوَّلِ ، في سَماءِ مِصرَ ، فَجَرى عَلَى سُنَّةِ أَيْيِهِ وَجَدَّهُ ، وَعَرَفَ
لِلزَّرَاعَةِ قِيمَتَها ، وَبَحَثَ عَنِ عِلَلِها وَأَدْوائِها ، وَوَصَفَ لِكُلِّ داءٍ
دَواءً ، وَها هِيَ ذِي المِدارِسِ " الزَّراعِيَّةُ " ، والمِعارِضُ والنُّقاباتُ
والبُعوثُ والجمِعاتُ ، وما إِلى ذلِكَ مِنْ وَسائِلِ تَرْقِيَةِ الزَّرَاعَةِ ،
تَنْهَضُ دَلِيلًا عَلَى أنْ الزَّرَاعَةَ لَمْ تَنْلِ في عَصْرِ مِنْ العِصُورِ عِنايةً
ورِعايةً ، كالَّذِي نالَتْهَ في هَذا العَصْرِ السَّعِيدِ ، وَحَسْبُكَ أنْ تَجُولَ
في الوادِى جَوْلَةً ، فَتَرى نِماءَ الزَّرْعِ ، وَنشاطَ الزَّرَّاعِ ، وَسِمْنَ
الماشِيَةِ ، وَتَعْرِفَ لَدُنِ الجَمِيلِ جَميلَهُ .

التاسع عشر



(١٧)

القناطر الخيرية

يستمدُّ نهرُ النيلُ ماءه العاديَّ من البحيراتِ الاستوائيةِ ،
التي لا ينقطعُ تساقطُ الأمطارِ من سماءها على مدارِ السنةِ ،
ويجرى هذا الماءُ من أواسطِ أفريقيةِ ، حتى ينصبُّ في البحرِ
الأبيضِ المتوسطِ ، بعد أن يتشعبَ النيلُ إلى فرعينِ شماليٍّ مدينةِ
القاهرةِ ، أحدهما فرعُ دِمياطٍ ، والآخرُ فرعُ رشيدٍ ، وهذا الماءُ
العاديُّ لا يرتفعُ إلى الوديانِ والحقولِ لعمقِ تجرَى النهرِ ، فلا
يتيسرُ إرواءُ شيءٍ من الأرضِ ، اللهم إلا بعضَ الحقولِ المجاورةِ
لشاطئِ النهرِ ، فإنها قد تُسقى بماءِ الآلاتِ الرافعةِ ، وفي ذلك
من المتاعبِ ما لا قبلَ للناسِ باحتماله ، ذلك شأنُ البلادِ قبل أن
يَعْمُرَها النيلُ بفيضِهِ السنويِّ وَيُجْزِلَ لها العطاءَ ، فإن الأمطارَ
تَهْطِلُ على الجبالِ الحبشيةِ في مطلعِ صيفِ كلِّ عامٍ ، وتندفقُ
مياهاً في روافدَ عديدةٍ ، تتجهُ غرباً حتى تلتقيَ بالماءِ العاديِّ في
النيلِ ، فيضيقُ بها صدرُهُ ، ويمتلئُ بها جوفُهُ ، فإذا فاضَ هذا

البحرُ المسجورُ في مصرَ ، ارتفعت مياهُهُ ، وسالت في جهات
الوادي ، وبذر الناسُ الحبَّ ، وَرَجَوْا الثَّمارَ من الرَّبِّ ، ولم يلبثْ
بعدَ قليلٍ أن يَغُلَّ يَدُهُ ، ويعودَ سيرَتَهُ الأولى .

يَسْهَلُ عَلَى المرءِ بعدَ ذلك ، أن يستنبطَ أن هذا الواديَ المباركَ
كان لا يُزْرَعُ إِلَّا في أَيَّامِ الْفَيْضَانِ زَرْعَةً واحدةً ، وأنه في زمن
تناقصِ النيلِ يكونَ بَوْرًا .

أَتَدْرِي يا هذا مَنْ فَكَّرَ في حبسِ ماءِ النيلِ حتَّى لا يذهبَ
سُدِّي ؟ أَتَدْرِي مَنْ أَحْيَى الْمَوَاتَ في مِصرَ ؟ أَتَدْرِي مَنْ جعلَ
أَرْضَ مِصرَ الشَّمَالِيَّةَ تُزْرَعُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلِّ حَامٍ ؟

إنه محمدُ عليّ باشا الذي هالَهُ أن يَسْمَعَ المِصرِيَّ يقولُ :
أَرَى ماءً وَبِي ظِلًّا شَدِيدًا ولكنَّ لا مَسِيلَ إلى الوردِ
نال منه أن يَرَى الماءَ يَجْرِي إلى البحرِ عَذْبًا فَرَاتًا ، والبلادُ ،
سكانها وزَرْعُهَا وَحَيَوَانُهَا ، في حاجةٍ مَاسِيَّةٍ إلى هذا الماءِ ، شقَّ
عليه أن يَدْعَ الدَّواءَ يُلْقَى في اليمِّ ، والمريضُ يَسْتَسْلِمُ لعواملِ
الموتِ ، فتقدَّم إلى الصُّنَّاعِ والمهندسين أن يُقيموا عَلَى مَبْدَأِ كُلِّ

فَرِيعٌ مِنْ فَرْعِي النِّيلِ قَنْطَرَةٌ ذَاتَ عُيُونٍ وَأَبْوَابٍ حَدِيدِيَّةٍ ، تُفْتَحُ
وَتُغْلَقُ عِنْدَ إِرَادَةِ ذَلِكَ ، حَتَّى إِذَا انْقَضَى فَيْضَانُ النَّهْرِ أَغْلَقْتُ
الْأَبْوَابُ فِي وَجْهِ الْمَاءِ الْعَادِيِّ ، فَتَكَاثَرَ خَلْفُهَا وَمَلَأَ مَجْرَى النَّهْرِ ،
وَارْتَفَعَ سَطْحُهُ عَنْ سَطْحِ الْمَزَارِعِ ، فَأَزْرَوَاهَا صَيْفًا وَشِتَاءً ، وَأَحَالَهَا
جَنَاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

ذَلِكَ الْحَجَرُ الْأَوَّلُ فِي أُسَاسِ إِنْهَاضِ مِصْرَ ، وَضَعَهُ يَدُهُ
الشَّرِيفَةُ رَأْسُ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْعُلَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ

(١٨)

الجداول والقنوات (١)

لا أراه مُجاوِزاً كَبِدَ الحَقِيقَةِ ، ولا قَادِياً وَجَهَ الصَّوَابِ ، مَنْ
يَقُولُ ، إِنْ هَذَا الْوَادِيَّ جِسْمٌ قَلْبُهُ النِّيلُ ، وَشَرَايِينُهُ الْجَدَاوِلُ
وَالْقَنَوَاتُ الَّتِي تُنْدَفِقُ فِيهَا الْمِيَاهُ ، وَتَجُولُ فِي نَوَاحِي الدِّيَارِ فَتُبْعَثُ
فِيهَا الْحَيَاةَ ، ذَلِكَ قُطْرُنَا الْمَصْرِيُّ الَّذِي يَعْرِفُ النَّاسُ طَرّاً أَنَّ ثَرَوَتَهُ
فِي زِرَاعَتِهِ ، وَأَنَّ زِرَاعَتَهُ لَا تَنْبِي وَلَا تَجُودُ ، إِلَّا إِذَا انْتَضَمَتْ سُبُلُ
إِرْوَاهِهِ وَامْتَدَّتْ فِي أَرْجَائِهِ الْجَدَاوِلُ ، وَتَشَعَّبَتْ فِي نَوَاحِيهِ الْقَنَوَاتُ ،
وَيَسَّرَتْ وَصُولَ الْمَاءِ إِلَى الْمَزَارِعِ الْبَعِيدَةِ عَنْ مَجْرَى النِّيلِ .

تَسْلَمُهُ الْبَطْلُ الْكَبِيرُ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ بَاشَا ، وَلَيْسَتْ تَعْلُو سَطْحَ
أَرْضِهِ الْمِيَاهُ إِلَّا زَمَنَ الْفَيْضَانِ ، وَلَيْسَتْ تَنْبَعثُ مِنَ النِّيلِ فِي نَاحِيَةٍ
مِنْ نَوَاحِيهِ قَنَآةٌ ، فَعَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرَى أَرْضَ الْوَادِي الْخَصِيبِ بَلَقْعًا ،
وَهِيَ صَالِحَةٌ لِإِنْبَاتِ أَطْيَبِ الثَّمَرَاتِ ، فَأَمَرَ أَنْ تُنْشَأَ فِي مَصْرِ
السُّفْلَى جَدَاوِلُ تُسْتَمَدُّ مِيَاهُهَا مِنَ النِّيلِ خَلْفَ الْقَنَاطِرِ الْخَيْرِيَّةِ ،
ثُمَّ تَجْتَازُ الْأَقَالِيمَ عَنْ يَمِينِ النِّهْرِ وَشِمَالِهِ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى شَوَاطِلِ

البحيرات الشمالية ، بعد أن تكون قد حملت إلى جسم البلاد
ماء الحياة .

أَتَعْلَمُ يا هذا كيف كان وَقَعُ ذلك الأمرِ في نفوس آبائك
المصريين ؟ . إنهم لفردت جفونهم ، ولما جُبلوا عليه من الكسل أنكروا
ذلك ، وظنوه عملاً شاقاً ، يُرادُ تسخيرُهم فيه لسيّد طامع الحكام ،
كما تعودوا ذلك في عهد المماليك والعثمانيين ، فمنهم من اعتصم
بمخبئ في داره ، ومنهم من فرّ هارباً إلى بلاد سورية ، ومنهم
من عصى الأمر وتأهب للدفاع ، ولكن أَمْرَ مَنْ يَعْصُونَ ؟ .
ومن وجه مَنْ يَفْرُونَ ؟ . وقد تعقبهم جنوده ، وقفاً آثارهم عسسته ،
واستاقوهم إلى العمل مُكرهين ، وأرغموهم على أن يؤسسوا
لأبنائهم وذريّاتهم ، بناءً شامخاً من المجد والسعادة ، وها هي ذى
قسوة محمد عليّ باشا قد زالت ، وثمارُ إنشاء الجداول لا تزول ،
فالزراعُ مُخضرون ، والحدايقُ يانعة ، والرّخاء عامٌ ، والتجارةُ نافقة ،
وسكان المدن والقرى يُسَبِّحون بحمد هذا المصلح العظيم .

(١٩)

الجداول والقنوات (٢)

رأى إسماعيلُ الزراعةَ في مصر ذابلةً ، والجداولَ جافةً ،
والأرضَ قاحلةً ، والأهلينَ كُسَالَى ، والفقرَ مُدْقِعًا ، فهمُ وهو
صاحبُ الهمةِ الشَّماءُ ، بإحياءِ أرضِ مِصرَ وإجراءِ المياهِ في جميعِ
أصقاعها ، ليستدرَّ بذلكَ خيراتها ، ويستغلَّ منابتها ، فبدأَ بجداولِ
جِدِّه فَعَمَّقَهَا ، وأصلَحَ جُسُورَهَا ، وأعادها سيرتها الأولى ، ثم حمل
الناسَ في كلِّ ناحيةٍ من نواحي القطرِ على حَفْرِ الجداولِ ، وإنشاءِ
القنواتِ والمصارفِ والقناطرِ ، وأكرهَهُم على ذلكَ إكراهاً ، وما
هو إلا أن تشعبت القنواتُ في جسمِ البلادِ ، وجرى فيها الماءُ ،
وأخصبَ من الأرضِ ما كان مُجْدِبًا ، وزُرِعَ منها ما كان بَورًا ،
وعُمِرَ ما كان خرابًا . واستثمرتِ الحقولُ الواسعةُ ، والضِّياعُ
الكبيرةُ ، وأنشئتِ الحدائقُ النَّضِرَةُ ، وغُرِستِ الأشجارُ العظيمةُ ،
واخضرتِ المزارعُ ، وأخذتِ الأرضُ زُخْرُفَهَا وازينتُ ، ولَبِستُ
البلادُ من الخضرَةِ حُلَّةً سُنْدُسيَّةً ، ونَشَرَ الملاحونَ قِلَاعَ سفائِنِهِم

في تلك الجداول ، واستراح الزراع ، وغرّد الطير ، وغنى الذباب
ورعت السائمة .

ولو علمت يا هذا أنه أنشأ نيفاً ومائتي جدول ، وأكثر من
خمسمائة قنطرة ، لعرفت مبلغ اهتمامه بترقية موارد الثروة في
مصر ، ولورأيت القسوة التي أخذ بها المصريين إبان إنشاء تلك
القنوات ، والتي لا تزال أحاديث أكثر العامة من المصريين في
سمرهم ، لعرفت أنه سخر آباءنا في جميع ثروة عظيمة لنا دون أن
يشعروا ، ولحمدت له هذا السعى المشكور ، وأذعنت بأن ما نحن
فيه من رخاء وغنى أثر من آثار هذا المصلح الكبير .

بقي عليك أن تعرف أن هذه الجداول والمجاري إذا أهملت
تراكم فيها الطين وتعدّر سير الماء فيها ، وأنها كانت موضع عناية
خلفاء إسماعيل باشا ، حتى جاء العصر الزاهر ، عصر ملكنا الأُمجد
أحمد فؤاد الأول ، فانتظم سير الدّورة المائية في جسم الوادي
ونمت الزراعة نماءً قلّ أن يُدانيه نماء ، وامتلات خزائن المصريين
ذهباً بفضل عنايته بالجدول والموارد المائية ، وتعهده لها وتعين

حُرَّاسِ لُجُورِهَا، وَحِسَابِ لِقْيَاسِ ارْتِفَاعِهَا وَانْخِفَاضِهَا، وَمُهَنْدِسِينَ
لُحْفِهَا وَتَعْمِيقِهَا، وَبِنَاءِ الْقَنَاطِرِ عَلَيْهَا وَفَتْحِ التَّرْعِ فِي صِنْفِهَا،
وَزَرْعِ الْأَشْجَارِ عَلَى شَوَاطِلِهَا، وَإِنْشَاءِ الطَّرِيقِ الزَّرَاعِيَةِ بِحَذَائِهَا،
وَتَوْزِيعِ مِيَاهِهَا عَلَى الْأَرْضِينَ تَوْزِيعًا عَادِلًا، اللَّهُمَّ إِنَّ الْمَصْرِيِّينَ
مَدِينُونَ بِكُلِّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عِلْمٍ وَرَخَاءٍ وَحُرِّيَّةٍ، لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ
الْمُبَارَكَةِ، فَاجْزِ اللَّهُمَّ صَاحِبَ الْإِحْسَانِ إِحْسَانًا.

(٢٠)

الحيوان

كانت مصرُ ولا تزالُ تعتمدُ على ماشيتها في حَرْثِ الأرضِ
وسقِّيها، ودرس الغلالِ وطحنِها، وحمل الأثقالِ وجَرِ العجلاتِ،
فهي لذلك تُعنى بها منذُ القدمِ، عنايةً عظيمةً ومن عَرَفَ أن
المصريين الأقدمين اتخذوها معبوداتٍ، وقدموا لها القرابين،
ولبسوا الحِذَادَ لموت العجلِ « أيس » وفرحوا وتزيَّنوا عند
العشورِ على عجلٍ آخرَ يعبدونه، يُدرك كيف كان القومُ يعتقدون
في نفع هذه الماشية، وأن عليها مدارَ معيشتهم، وعمادَ حياتهم
فهي طعامُهم إذا جاعوا، ومطايأهم إذا أزمعوا السَّفرَ، وعليها يحملون
أثقالهم إلى بلدٍ لم يكونوا بالغِيهِ إلا بِشِقِّ الأنفُسِ، ومن أصوافِها
وأوبارِها وأشعارِها أثاثٌ لهم ومتاعٌ.

ذلك شأنُ الماشيةِ المصريةِ في عصورها الأولى، ثم عَدَا عليها
ما عدا على جميع مرافقِ الحياةِ المصريةِ في القرونِ الوُسْطَى،
فضَعُفَ شأنُها، وقلَّ عددُها، وأجْدَبَتْ مراعيها، وقلَّتْ حاجَةُ

الناس إليها ، بعد أن أهملوا زراعة الأرض ، والارتحال بالمتاجر ، حتى إذا بدا لمحمد علي باشا أن يهتمّ بالزراعة المصرية ، رأى أن قوام ذلك الأنعام ، فجلب منها ما لا غنى للزرايع عنه ، كالثيران والأبقار فكانت خير معوان لهم .

ولما رأى بعد انتظام وسائل الري ، أن المراعى قد اخضرّ فيها العشب والكلأ ، وأن البلاد في حاجة إلى الثياب الصوفية ، أنفذ في بلاد العرب وسورية وغيرهما من يشترون الأغنام ، فعادوا بقطعان كبيرة منها ، انتشرت في منابت العشب ، ومساقط الأمطار يحميها الرعاة والحراس ، ثم جُزّت أصوافها وغزلت ، وأنشئت المناسج فنسجت الثياب الصوفية في المصانع المصرية ، ولبسها المصريون ، وها نحن أولاء نرى تلك المصانع لا تزال باقية ، ونرى فريقاً عظيماً من الأمة المصرية يتخذ من تلك المناسج أثواباً قشبية ، إذا لبسها أحدهم سأل الله لمن شاد مصر الرحمة والرضوان .

ولعل في إنشاء هذا البطل العظيم مدارس للطب البيطري دليلاً ساطعاً على أن الماشية كانت محلّ عنايته ، وموضع رعايته .

(٢١)

الأشجار

ليست بلادنا منبت غابات، ولا منبع أجمات، مضت في هذا السبيل منذ خلقت، تعتمد في تحصيل الآلات الخشبية، وخشب العمارة على جاراتها من الأمم الأوربية والآسيوية، ولعلك ترى تجار الخشب عندنا لا يزالون يجلبونه من مصادره الأولى في أوربة الشمالية، وإن ما يرى في حدائقنا، وعلى جوانب الطرق الزراعية في أقاليمنا، وعلى حفاف النيل، وشواطئ الجداول في ديارنا، وعلى أرصفة الشوارع والميادين في أمهات مدُننا، من أشجار باسقة وخمائل مُلتفة، ليس إلا حسنة من حسنات جد هذه الأسرة المباركة العلوية، وأصل هذه الشجرة الطيبة الزكية، محمد علي باشا.

تناول إصلاحه فيما تناول الأشجار واستنباتها في هذا القطر، فقد عز عليه أن تحتاج هذه الأمة إلى غيرها في جلب الخشب، وهي مادة أولية من مواد الحياة لا غنى لكائن من كان عنها،

فَأَمْرٌ أَنْ يُؤْتَى بِذَوْرِ الْأَشْجَارِ وَفَسَائِلِهَا حَيْثُمَا وَجَدَتْ وَأَنْ تُزْرَعَ
فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي يُرْجَى لَهَا فِيهَا النَّمَاءُ ، وَأَنْ يُوَكَّلَ بِسَقْيِهَا
وَتَشْدِيدِهَا وَحِرَاسَتِهَا ذَوُو الْخَبْرَةِ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ بِالنَّبَاتِ وَتَعْمُدُهُ .

نَجَمَتِ الشَّجِيرَاتُ وَتَرَعَرَعَتْ ، وَتَرَنَّتْ أَفْنَانُهَا ، وَتَعَانَقَتْ
أَغْصَانُهَا ، وَكَادَتْ الْبِلَادُ تَجْنِي جَنَاهَا ، وَتُعَوِّلُ فِي وَقُودِهَا وَخَشَبِهَا
عَلَى مَا جَادَتْ بِهِ غَابَاتُهَا ، لَوْلَا أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ طَافَ بِغَارِسِ الْأَشْجَارِ ،
وَمُحِي الدِّيَارِ ، وَحَامِي الدِّمَارِ ، فَذَبَلَتْ أَغْصَانُهَا ، وَتَسَاقَطَتْ
أَوْرَاقُهَا ، وَتَحَوَّلَ كَثِيرٌ مِنْهَا إِلَى هَشِيمٍ تَذْرُوهُ الرِّيحُ ، وَلَا نَذْرَى
أَذُبُولُ مَا ذَبَلَ مِنْهَا كَانَ حُزْنًا عَلَى فَارِسِهَا ، أَمْ أَنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى
أَمْرِهَا سَيَمُوتُوا الْعَمَلَ وَأَمِنُوا الْعِقَابَ فَأَهْمَلُوهَا وَجَعَلُوا يَدِيهَا وَبَيْنَ
الْمَاءِ سَدًّا مَنِعًا ؟ . عَلَى أَنْ يَدَ الذُّبُولِ لَمْ تَكُنْ لِتَأْتِيَ عَلَى كُلِّ مَا
غَرَسَ ، بَلْ ظَلَّ نَامِيًا مَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَجَارَى الْمَائِيَةِ الْعَذْبَةِ ،
حَتَّى صَارَ دَوْحًا عَظِيمًا ، وَهَذَا نَحْنُ أَوْلَاءُ تَتَّخِذُ مِنَ الْأَشْجَارِ آلَاتِنَا
الزَّرَاعِيَّةَ ، وَوَقُودَنَا ، وَنَسْقِفُ كَثِيرًا مِنْ يَوْتِنَا بِأَعْوَادِهَا ،
وَنَتَفَيَّأُ ظِلَالَهَا ، وَنُشَارِكُ طَيُورَهَا الْمَغْرَدَةَ ، وَذُبَابَهَا الْمَغْنَى ، فِي
اسْتِنْزَالِ الرَّحْمَاتِ ، عَلَى جَدَثِ الْمَصْلِحِ الْكَبِيرِ ، وَالْبَطْلِ الْعَظِيمِ
مُحَمَّدٍ عَلَى بَاشَا .

(٢٢)

القطن

منبع الثروة، وكنز الغنى، ومصدر الخيرات، ومنهل البركات،
وأصل السعادة والرخاء، هو الركن الركين الذى تعتمد عليه الأمة



جنى القطن

المصرية الآن فى بناء أساس استقلالها الاقتصادى والمالى، وهو
السلم الذى تصعد فيه إلى ذروة المجيد والسودد، وهو القوة
الكهربائية التى تجذب الشعوب إلينا، فتخطب ودنا، وتثملقنا،

هو تلك الخيوط البيضاء الناصعة التي يُنسجُ منها لباسنا ، ولباسُ
الناسِ أجمعين .

هل ذَكَرَ الزارعُ المصريُّ وهو يحنى ثِمَارَ هذه الشجرةِ
الطيبةِ ، ويبيعُها بقناطيرَ مقنطرةٍ من الذهبِ والفضةِ ، مَنْ أُسْدَى
إليه هذا الجميلُ وكيف أُسْدَاهُ ؟ . هل عرفَ الناسُ كافةً فَضْلَ
من ألبسهم من القطنِ لباساً ضافى الديولِ ؟ . هل سألَ الأطباءُ
والجراحيونَ جَرَحَاهُم وهم يَضْمِدُونَ لهم جِرَاحَهُم بالقطنِ ، أن
يَرَفَعُوا أَكْفَ الضراعةِ إلى الله أن يَرْحَمَ من صَنَعَ للإنسانيةِ
هذا الجميلَ ؟ . هل دارَ بِخَلَدِ مَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى الْحَشَايَا القطنيةِ
اللينةِ أن يزورَ كلَّ حينٍ قَبْرَ مَنْ غرسَ تلكَ الشجرةَ الطيبةَ
في مصرَ ؟ . أتعرفُ يا هذا لمن كلُّ هذا الفضلِ العظيمِ ؟ . إنه
لنصيرِ مصرَ ، وباعِثِها من رَمْسِهَا ، الحاجُّ محمدٌ عليٌّ باشا .

عَلِمَ أن بلادَ الهند تزرعُ نوعاً من النباتِ يقالُ له القطنُ ،
فجلبَ بذوره فيما جلبَ ، وجربَ زراعته في إحدى حدائقِ
القاهرةِ ، فَنَمَى وجاءَ بشيءٍ عظيمٍ ، فتقدمَ إلى بعضِ المصريين
أن يزرعوه في حقولهم ، تحتَ إرشادِ أولى العلمِ بزراعته ، وتهدّدَ

العاصين منهم بالعقاب الصَّارم، فزرعوه عَلَى الرِّغِمِ منهم، وجَنَوْهُ
غَيْرَ حَافِلِينَ بِمَا لَهُ مِنْ مَزَايَا وفوائد، ثُمَّ غَزَلَهُ الْغَازِلُونَ ونَسَجَهُ
النَّاسِجُونَ، وَسَرَعَانِ مَا انتشرت زراعته في مصر السفلى وأنشئت
له المحالج والمناسج، وهأنت ذا ترى مَنْ شَاءَ مِنَ الزَّرَّاعِ أَنْ يَمْلَأَ
خَزَائِنَهُ مَالاً، لَا يَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَى الْقُطْنِ، وَمَنْ أَرَادَ مِنَ التِّجَارِ
أَنْ يَرْبِحَ أَرْبَاحًا طَائِلَةً لَا يَتَّجِرُ إِلَّا فِي الْقُطْنِ، وَمَنْ رَامَ مِنْ
أَرْبَابِ الصَّنَاعَةِ أَنْ يَحْتَكِمَ فِي الْعَالَمِ، لَا يَشْتَغِلُ بِغَيْرِ صِنَاعَةِ
نَسِجِ الْقُطْنِ.

إِذَا كُنْتَ قَدْ عَرَفْتَ لِلْقُطْنِ قِيَمَتَهُ وَخَطَرَهُ، وَعَرَفْتَ مَنْ
زَرَعَهُ وَنَشَرَهُ، أَفَلَا تَتَقَدَّمُ فِي خُشُوعٍ وَخُضُوعٍ، بَيْنَ يَدَيِ قَبْرِ
هَذَا الْمُحْسَنِ الْكَبِيرِ، وَتَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ الْجَنَّةَ مِثْوَاهُ، وَأَنْ
يَحْفَظَ لَنَا حَيَاةَ حَفِيدِهِ الْأَكْرَمِ، الَّذِي نَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ فِي الْعَنَاءِ
بِشَأْنِ الْقُطْنِ وَزَارَعِيهِ، صَاحِبَ الْجَلَالَةِ مَلِكِنَا الْمُفَدَّى
أَحْمَدَ فُؤَادِ الْأَوَّلِ، إِنْ فَعَلْتَ وَلَا أَظُنُّكَ إِلَّا فَاعِلًا، فَقَدْ قَابَلْتَ
الْإِحْسَانَ بِالشُّكْرِ، وَلَنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَنْتَ مِنَ الْعَاقِبِينَ.

(٢٣)

أشجار الفاكهة

جُلُّ بِطْرِفِكَ بَيْنَ أُعْطَافِ هَذَا الْوَادِي الْعَظِيمِ ، وَمَتَّعَ النَّظَرَ
بِرُؤْيَا حَقُولِهِ الْخَضِرَاءِ ، وَحَدَائِقِهِ الْغَنَاءِ وَبَسَاتِينِهِ الْفَيْحَاءِ ، وَسَلَّ
رَبَّ كُلِّ حَدِيقَةٍ ، وَصَاحِبَ كُلِّ بَسْتَانٍ ، فِي أَيِّ عَهْدٍ غَرَسَ
تِلْكَ الْأَشْجَارَ الَّتِي دَانَتْ قُطُوفُهَا ، وَتَدَلَّتْ ثِمَارُهَا ؟ وَمِنْ أَيْنَ
جَاءَ يَبْدُورُهَا ؟ وَمَنْ عَلَّمَهُ زَرْعَهَا وَاسْتِثْمَارَهَا ؟ ثُمَّ سَلِهَ عَنْ مَقْدَارِ
مَا تَدِرُّ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ عَمِيمٍ وَرَبِّحٍ جَسِيمٍ ، سَلِهَ يُتَحَدَّثُ إِلَيْكَ فِي
بَسَاطَةٍ وَسُكُونٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ .

أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ أَنَّ ذَلِكَ الْبَسْتَانَ يَرْجِعُ الْعَهْدُ فِي غَرَسِ
أَشْجَارِهِ إِلَى زَمَنِ الْمَصْلُوحِ الْعَظِيمِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بَاشَا ، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ حَفَرَ
الْجُدَاوِلَ وَأَجْرَى الْمَاءَ إِلَى الْمَزَارِعِ ، لَمْ يَشَأْ أَنْ يَكُونَ نَصِيبُ غَيْرِ
الْفَاكِهَةِ مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتِ أَعْظَمَ مِنْ نَصِيبِهَا ، فَجَاءَ يَبْدُورُهَا مِنْ
سُورِيَةِ وَمَمَالِكِ أَوْرُبَةِ الْجَنُوبِيَةِ ، ثُمَّ حَمَلْنَا عَلَى زَرْعِهَا ، وَعَلَمَاءُ
الزَّرَاعَةِ يُرْشِدُونَنَا مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ ، إِلَى طُرُقِ الْعِنَايَةِ بِهَا

ووسائل تنميتها ، وما هو إلا قليلٌ حتى جادت شجيراتُها ، بأشهى
الثمار ، وتساقطت من أفنانها فاكهةٌ جنيّةٌ ، ما كدنا نظهرُ بها
في الأسواق حتى تسابقَ الناسُ الى شرائها بعد أن عرفوا لذة
طعمها ، ومبلغَ نفعها في صحة الأجسام ، وها نحن أولاء لا نزالُ
نتوارثُ هذا البستانَ مولوداً عن والدٍ ، ونحتفظُ بكلِّ نوعٍ من
أنواعِ فاكهته ، وتقدمُ للآكلين في الصيفِ ، التينَ والعنبَ
والخوخَ والموزَ والمشمشَ والبطيخَ والشمامَ ، وفي الشتاء البرتقالَ
والتفاحَ والموزَ والتمرَ وما إلى ذلك مما لذ وطاب ، أما ربُّنا منه
فإنه بحمد الله عظيمٌ ، ولعلك تستنبطُ من خلال حديثي هذا ،
أنى ومن تقدمنى من آبائى غارقون فى النعم التى أسبغها علينا هذا
الجوادُ الكريمُ ، ولا يزالُ يُسبغُها علينا أحفاده العظماء ، لذلك
ترانا لا نفتأُ نستمطرُ لجدته غُيُوثَ الرحمة ، عرفانا لجميله ، وإحياء
لذكره ، ونرجو لخيرِ عترته ، ملكنا الأعظم أحمدَ فؤاد الأول ،
عمرًا طويلاً ، وعهداً سعيداً .

فهل أنتم يا معشرَ الأغنياء ، يا من تتعاون منا هذه الفواكه ،
ويقدمها إليكم تُدُلُّكم وخدمُكم على موائد طعامكم وشرابكم ،
ذاكرون فضلَ من أحسنَ إلينا وإليكم وكان لبلادنا خيرَ الحاكمين ؟

(٢٤)

الكتان والنيل (النيل)

خيرُ الملوكِ من يُغْنِي أُمَّتَهُ عن الأُمَمِ ، وَيُقَلِّلُ حاجَتَهَا إليهن ،
ويوفِّرُ لها أسبابَ الراحةِ ، وَيُسَهِّلُ عليها تحصيلَ مرافِقِ الحياةِ ،
ولعل بطلنا الكبيرَ محمدَ عليّ باشا كان خيرَ مَنْ أخذ بيدَ أُمَّتِهِ ،
وشجَّعَهَا عَلَى العملِ حتى تستغنى عن غيرها ، فإنه نشطَ زراعةَ
الكتانِ في مصرَ ، وأنشأ معاملَ لنسجِ خيوطِهِ ، وأخرى لعصرِ
بذوره ، واستخراجِ زَيْتِهَا ، ولست تُدركُ مبلغَ ما عاد عَلَى الأمةِ
المصريةِ إذ ذاكَ ، ولا يزالُ يعودُ عليها الآنَ ، من تلكَ الشجرةِ
الطيبةِ ، إلا إذا عرفتَ فوائدَ الكتانِ ومزاياه ، ونُفْيوطُهُ أَشْبَهُ
بُنْيُوطِ الحريرِ ، ويمتازُ نَسْجُهُ بالمتانةِ العظيمةِ ، وبذوره قلَّ أنْ
يخلوَ منها أو من مسحوقها أو من عصيرِها دواءٌ .

ولما رأى هذا المصلحُ ، أن الأنسجةَ المصريةَ عَلَى اختلافِ
أنواعِها لا يُعَوِّزُهَا إِلَّا أن تُصبغَ بالألوانِ المختلفةِ ، حتى يتناسبَ
حُسْنُ منظرِها ورُؤَاوُها ، مع متانتِها ودِقَّةِ صُنْعِها ، وإحكامِ

نَسَجِهَا ، تَقْدِمَ إِلَى الزُّرَاعِ أَنْ يَزْرَعُوا النِّيلَ (النيلة) الَّذِي يَسْتَعْمَلُ
فِي صَبْغِ الثِّيَابِ وَتَلْوِينِهَا ، وَجَاءَهُمْ بِيَذْرُهُ وَبِمَنْ يَهْدِيهِمْ طَرِيقَةَ
زَرْعِهِ وَاسْتِنْبَاتِهِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ صَدَعَ الزُّرَاعُ بِالْأَمْرِ ، وَزَرَعُوا
تِلْكَ الشَّجَرَةَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، فَآتَتْ بِخَيْرِ مَا كَانَ يُرْجَى مِنْهَا ،
وَأَنْشُتَتْ فِي الدِّيَارِ الْمَصَابِغُ ، وَكَفَى اللَّهُ الْمَصْرِيِّينَ الْحَاجَةَ إِلَى
الْأَجَانِبِ ، وَأَغْنَى الْأُمَّةَ بِمَا صَنَعَتْ أَيْدِي صُنَائِعِهَا ، وَزَرَعَتْ
أَيْدِي زُرَّاعِهَا ، وَإِنْ كَانَ لَا يَزَالُ فِي الْبِلَادِ بَقِيَّةٌ مِنْ هَذَيْنِ النَّبَتَيْنِ
أَوْ مَصْنَعٌ مِنْ مِصَانِعِهِمَا ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَسُولِ الْإِصْلَاحِ
فِي مِصْرَ ، الْحَاجِّ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بَاشَا الْجَدِيدِ مِنْ كُلِّ مِصْرِيٍّ بِاسْتِنْزَالِ
شَايِبِ الرَّحْمَةِ وَالنُّفْرَانِ .

(٢٥)

الجيش

جنودُ البلادِ حُماةَ الدِّمارِ، وحصونُ الدولةِ، ودروعُ المملكةِ،
والمدافعون عن الثغور، والدائدون عن الحياض، وهم عُدَّتُها في
الشدة، وسلاحُها عند الخطوب، وكلما كان جيشُ الأمةِ بأسلاً
هابِئاً للدول، وخَشِيتْ بأسَها الممالكُ.

كانت جنودُ المصريين في عصورهم الأولى أقوى جيوشِ
العالم، فكم دَوَّخَ بها الفراعنةُ بلاداً، وهزموا بها جيوشاً، وفتحوا
حصوناً، ثم طحنتهم حروبُ الأتيوبيين والآشوريين والفرسِ،
التي استعرت نيرانُها زمناً طويلاً، وكانت نتيجةُ استيلاءِ
الأجنبيِّ على البلاد، فقد المصريُّ كلَّ ما عرِفَ به من الشجاعةِ
والشهادةِ، ومضى في تلك السبيل نيفاً وعشرين قرناً، تحتكمُ
فيه جنودُ الفاتحين.

حتى أذنَ اللهُ لمصرَ أن تستعيدَ مجدها الغابرَ، فبعث فيها
بطلَ حريتها واستقلالها محمدَ عليَ باشا، فألقدها من حكمِ المماليكِ،

ورأى بعد ذلك عاراً عليها، ألا يكون لها جيشٌ من أبنائها، يحمي
جَمَاحها، ويرفعُ عَلَمَها، ويردُّ عنها المُغِيرين، ثم أمر بتجيش جيشٍ
مصريٍّ بِحَتٍّ.

ما ظنُّك يا هذا بأبناء أُمِّتِكَ وفِتْيَانِها؟ هل تَلَقَّوْا هذا الأمرَ
فَرِحِينَ مستبشرين؟ أو أَنهم لِمَا رُبُّوا عليه من الظلم والاستبدادِ،
وما جُبِلوا عليه من الذلَّةِ والمسكِنَةِ، وما نشِئوا عليه من الجُبْنِ
والخوفِ، استقبلوه استقبال الصاعقةِ، وَعَدَّوْهُ أَمْرًا إِذَا تَكَادُ
السمواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ، وتَنَشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَذَا؟

كانت عادةُ المصريين في هذا العهد، أَن يَفِرُّوا من وجوه
الحكام ويَهَيِّمُوا على وجوههم في الأرض تاركين أبنائهم وبناتهم
إِذَا سَأَلهم هؤلاء الحكامُ أَن يَتَخَلَّوْا عن قديمِ مردُولٍ، وَيَتَحَلَّوْا
بجديدِ معقُولٍ، لا تَسْأَلُ عن المصاعِبِ التي اعترضت محمد علي باشا
في إنشاء جيشٍ مصريٍّ بِحَتٍّ، فَإِنَّه ما كان ليتغلبَ عليها. لولا
العنايةُ الإلهيةُ. والتوفيقُ الربَّانيُّ، والحظُّ السعيدُ.

كان في بدء أمره يعتمدُ في حكم البلاد وتسكين فتحها على الجنود العثمانيين . الذين كانت تبعثُ بهم الدولة العثمانية من حين إلى حين ، ولقد كان هؤلاء الجنود مختلفي الأجناس والميول ، فمنهم من كان شديد الطاعة له ، ومنهم من كان ينزعُ إلى التمرُّد والعصيان ، فجمع محمدُ عليّ باشا طائفةً من الشبان المصريين قوةً واقتداراً ، وأمر بتدريبهم على الحركات العسكرية ، فأثار ذلك تأثرَ جنوده العثمانيين الذين لا يعرفون نظاماً ولا يخضعون لقانون ، فأعلنوا عصيانهم وتمردهم ، وساعدوا الجنود المصريين على الفرار من ميدان التعليم .

فأعاد محمدُ عليّ باشا الكرة ، وجمع عدداً عظيماً من شباب مصر . وأمر أن يُعلِّموا نظامَ الجندية خارج القاهرة . تحت إشراف القائد الأعظم ولده إبراهيم باشا وسليمان باشا الفرنسي ، وما هي إلا أيامٌ حتى دخلت هذه الفرقة القاهرة كأنها البنيانُ المرصوصُ ، وهكذا صار يُحَثُّ جنودَ الجب من قلوب المصريين ويُغرسُ في نفوسهم أخلاقُ الشجاعة والأتفة ، ويزيدُ في عدد

الجيشِ المصريّ حتى استغنى به عن جيوش الدولة ، وأنشأ مدرسة
لتعليم الفنون البحرية ، ومعملاً لصنع الذخائر ، وحصّن الثغورَ
المصرية أُمْنَعَ تحصين ، وهكذا صار المدافعُ عن مصر ابنها ، وحقّ
لها بعد ذلك أن تفاخر الأمم بجيشها الباسل . واستقلالها الذي
ثبتت دعائمه . وقويت أركانُه .

أما أنت يا مُجَيِّشَ الجيوش ، وقائدَ الجنودِ وبطلَ الأبطالِ ،
فلك منا دعواتٌ صالحاتٌ ، وعليك منا سلامٌ عَظِيمٌ ، فقد حررت
بلادنا ، وجعلت لنا في العالمين ذِكْراً .

(٢٦)

التعليم (١)

ما ظنك بأمة رسفت في قيود الذل والاستعباد زمن المماليك
والعثمانيين؟ وما ظنك بشعب يُسَجَّرُ لخدمة سادته الجاهلين
وحكامه الظالمين؟ أَيْكونُ للعلم بين ربوع هذه الأمة علمٌ
خَفَّاقٌ، أَيْكونُ للعرفان في آفاق هذا الشعب سوقٌ نَافِقَةٌ؟
أَيْكونُ لمعاهد التعليم ومدارسه مقامٌ معلومٌ؟ كلا. كيف يتعلم
مَنْ أمرُهُ بيد جاهلٍ؟ كيف يتعلم مَنْ لم يجد معلماً ولا دارَ علمٍ؟
كيف يتعلم الخائفُ المترقبُ. الذي لا أَمْنٌ له على عرضٍ ولا
مالٍ؟ كيف يتعلم مَنْ يعادي حكامه وملوكه العلمَ والمتعلمين؟
لعلك بعد ذلك تُدركُ أن البطلَ الكبيرَ محمدَ عليَّ باشا وليَّ أمرِ
مصرَ. وربوع العلم فيها مُقْفِرَةٌ. ومنابتُ العِرفانِ فيها مُجْدِبَةٌ،
فكبرَ عليه أن يَغرِسَ النباتَ في حقولِ أقاليمها، قبل أن يبذرَ
بذورَ العلمِ في عقولِ أبنائها، فصمَّ على فتح المدارسِ على اختلافِ
أنواعِها. لتغذية عقولِ المصريين بلبان العلم الحديث.
قامت في طريقه إذ ذاك عقباتٌ جَمَّةٌ ما كان له أن يتغلبَ

عليها . لولا أنَّ إرادته كانت حديديةً ، وعزمه كان صارماً ، شاد المدارس الابتدائية ، والثانوية ، والعالية ، والخصوصية ، في أمهاتِ مَدُنِ القطرِ ، وأعدَّ أدواتِ التعليم ، والمعلمين الذين كان جلُّهم من الأجانب ، ودعا النَّاسَ إلى تعليم أبنائهم في هذه المدارس ، فما كان جوابهم إلاَّ أن قالوا ، ما لنا وللمدارس نُلْحِقُ بها أبناءنا يتعلمون فيها علومًا لا عهد لنا بها ؟ ما للمُبْصِرِينَ وللتَّعَلِّمِ ؟ وما سَمِعْنَا أن غيرَ العمي يتعلمون ، اشتدَّ عليهم وقسا ، وأخذ أبناءهم قوَّةً واقتداراً ، وأدخلهم المدارس وآباؤهم يكون ، ظلُّنا منهم أن هؤلاء المتعلمين سيفارقونهم يوماً ما ، أو أنهم سيسخرون في خدمةِ الحُكَّامِ ، أو أنهم سيكونون عاطلين لا يقدرُونَ على جلب قوتهم ، ولو علمت يا هذا طُرُقَ الحِيلِ التي كان يستعملها آباؤك فراراً من العلم ومعاهدِهِ ، لَرَبَّيْتَ لحالهم وعرفت أنهم كانوا في ضلالهم يعمهون .

على أن هذا المصلح العظيم ، لم يسألهم على هذا التعليم جزاء ولا شكوراً ، وسرعان ما بزغت في مصر شمسُ العِرفانِ ، وجال الذكاء المصري في ميدانِ العلوم الحديثة جوالاً عظيماً .

(٢٧)

التعليم (٢)

إذا كنت قد آمنت بأن محمد علي باشا أرغم الشعب المصري
على ولوج أبواب العلم إرغاماً، وأن الطلاب كانوا يؤخذون قسراً
من دورهم فيُسَقَّونَ كؤوس العلم مُكرهين، وأن الزمن لم
يكن كافياً لِمَزْجِ محبة العلم بدمائهم ولحومهم، إذا كنت عرفت
ذلك، فاعرف أن نار حياة البطل العظيم لم تكد تحبوا، حتى خبا
معه مصباح العلم في البلاد، فهجر كثير من طلابه مدارسهم،
وطاف بالمعاهد طائف العفاء، فذبلت أغصانها، وهي لم تزل
بعد في عهد الغضارة والنضارة.

ولولا أن تدارك الله كنانته، فبعث فيها سيد المصلحين
المغفور له إسماعيل باشا، لعادت مصر سيرتها الأولى.

جلس على عرشها بعد أن أخذ من العلوم الاوربية الحديثة
بنصيب وافر في معاهدها الكبيرة، وجامعاتها العظيمة،
وامتلأت نفسه إعجاباً بمدينة القوم ورفيقهم، فأخذ على عاتقه

أن يؤدب المصريين بأدب الغربيين ، وأن ينشر في ربوع مصر
أعلام تلك المدنية العظيمة ، غير مبالٍ ما اتفق في ذلك من
راحة ومالٍ ، تهر من المعاهد والمدارس ما عُبِثت به أيدي البلى ،
وعُني بإنشاء مدارس المعلمين ، وأهاب بالمصريين أن أذيقوا
أبناءكم حلاوة العلم ، فطالما تجرعوا كؤوس الجهل ، فأقبل
المتعلمون من كل فجٍ طائعين أو مُكرهين ، وضائق بهم
صدور المدارس ، وازدحمت مقاعدُها ، وتقدم إلى المعلمين ، أن
كسروا قيود الذكاء المصري وفكوا أغلاله وأطلقوا له العنان ،
ينفض بتلك الأمة الكريمة ، ويخرج بها في ميدان الرقي
شوطاً بعيداً .

سرت نهضة في البلاد مباركة ، ورجحت كفة العلم وأخذ
الناس يفضون غبار الجهل ، ويعتقون عقولهم من رقي الجمود
والتشبث بالقديم ، وهكذا وجد هذا المصلح عقول المصريين
صالحة لبذر بذور العلم الصحيح ، فبذرها وتعهدها حتى نمت
وترعرعت وآتت أكلها كل حين بإذن ربها .

(٢٨)

التعليم (٣)

غادر ساكن الجنان إسماعيل باشا ملك مصر ورياضُ العلم
فيها يانعة، وجاء خلفاؤه فما زادوا على الاحتفاظ بما شاد من معاهده
إلا قليلاً، حتى نظر الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة نظرَ رحمةٍ
وشفقةٍ، وأراد جلت قدرته أن تَبْزُغَ فيها شمسُ العلمِ بزوغاً لا
أقول له من بعد، فبعث فيها نصيرَ العلم، وملاذ العلماء، جلالة
مولانا الملك الأعظم أحمد فؤاد الأول .

ما كاد يطمئن على أريكة الملك، حتى أقام القلاع والحصون،
وأعدَّ المؤنَّ والدخائر، وجيَّشَ الجيوشَ، وأعلن على الجهل في
مصرَ حرباً عواناً، وما زال يطاردُه أينما وُجدَ، ويقاُتله حيثما
خيمَ، ويقفو آثاره أُنَّى حلَّ، حتى بددَ شملَه، وفرَّقَ جنوده،
وما هي إلا فلولٌ تهيمُ على وجهها في الأرض، تتبعها كتابه،
وتأخذُ عليها السُّبلَ سراياه، وعمّا قليلٍ ينتشرُ في الديار من أقصاها
إلى أقصاها، خبرُ انهزامِ الجهلِ وانسحابِ الأمية، أمام جيشِ

ثَالِمِ الظَّافِرِ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، وَتَجْنِي الْعُقُولَ
ثِمَارَ حَرِيَّتِهَا وَاسْتِقْلَالِهَا .

دَعِ عَالَمَ الْخَيَالِ ، وَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّةً ، وَتَعَلَّقْ بِأَهْدَابِ
الْحَقِيقَةِ ، وَقُلْ لِي بِرَبِّكَ ، هَلْ تَرَى فِي مِصْرَ بَعْدَ أَنْ جَلَسَ عَلَى
عَرْشِهَا مَلِكُنَا الْمَحْبُوبُ سُوقًا أَزْوَاجَ مَنْ سَوَّقَ الْعَلِمُ ؟ هَلْ تَسْمَعُ
فِي نَوَاحِي الدِّيَارِ لَغْوِ الْعِلْمِ ذِكْرًا ؟ أَلَيْسَ هَؤُلَاءِ الطُّلَابُ الَّذِينَ
يَنْعُدُونَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ إِلَى مَوَارِدِ الْعِلْمِ جُنُودًا حَشَرَهُمْ لِمَنَازِلَةِ الْجَهْلِ ؟
أَلَيْسَتْ تِلْكَ الْكُتُبُ وَالْمُؤَلَّفَاتُ الَّتِي تَظْهَرُ كُلَّ يَوْمٍ عُدَدًا لِمَصَارَعَةِ
الْجَهْلِ وَجَالِدَتِهِ ؟ أَلَيْسَتْ تِلْكَ الْمَعَاهِدُ الَّتِي يُرْفَعُ بِنْيَانُهَا وَتُدْعَمُ
أَرْكَانُهَا حِصُونًا وَمَعَاوِلَ لَصِيدِ غَارَاتِ الْجَهْلِ ؟ أَلَيْسَ مَنْ يَقُودُ
الْجِيُوشَ ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَ الْقِتَالِ ، وَيَهْزِمُ الْعَدُوَّ ، جَدِيرًا بِالْحُبِّ
الْخَالِصِ ، وَالْوُدِّ الصِّمِيمِ ؟ . إِنْ قَائِدَ هَذِهِ الْحَرْبِ الضَّرُوسِ ، هُوَ
جَلَالَةُ مَلِكِنَا الْأَعْظَمِ أَحْمَدُ قَوَادِ الْأَوَّلِ .

شَادَ الْمَدَارِسَ الْمُخْتَلِفَةَ ، وَالْمَعَاهِدَ الْمُتَنَوِّعَةَ ، فِي جَمِيعِ مَدِينِ
الْوَادِي ، وَنَشَرَ مَدَارِسَ الْمُعَلِّمِينَ ، فِي أَرْجَائِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِإِنْشَاءِ

المدارس الأولية في جميع القرى والساكنة ، وأن يتغذى فيها
بِلَبَّانِ العلم جميع أبناء وبنات الأمة ، غير مسئولين جزاء ولا
شكوراً ، أليس بملكنا جديراً منا ، بأن نذكره ، ونرتل آيات
حمده ، والثناء عليه ، حين نُمسي وحين نُصبح ، وأن نتوجه إلى الله
العلّيّ القدير ، متوسلين إليه بخير أنبيائه ، أن يحفظ لنا ولكنانة
حياته وحياته وليّ عهده ؟ .

(٢٩)

علماء أوربّة في مصر

لما أراد مُحَرِّرُ مصرَ ومُنْقِذُها البطلُ الكبيرُ محمدُ عليّ باشا،
أن يَبْذُرَ بذورَ العلمِ في مصرَ، قامت في سبيله عقباتٌ كثيرةٌ،
أهمُّها حاجةُ البلادِ إلى المعلمين الذين يُثَقِّفُونَ عقولَ الناشئين،
فإن معينَ العلمِ فيها كان ناضباً، ويكادُ لا يوجدُ من أولى العلمِ
إلا بعضُ علماء الأزهرِ، الذين كانت معارفُهم إذ ذاك لا تتجاوزُ
بعضَ العلومِ الفقهيةِ والنحويةِ.

اجتاز تلكَ العقبةَ كما اجتاز غيرها من العقباتِ، فعَهْدَ بتعليمِ
العلومِ الغربيةِ الحديثةِ إلى معلمين أكفاء، جاء بهم من فرنسا
وإنجلترا وغيرهما، وأغدقَ عليهم عطاياها، فقاموا بما عَهِدَ إليهم
خيرَ قيامٍ، وأسسوا بناءَ العلمِ في مصرَ على أُسُسٍ متينةٍ، حتى
إذا جاء عَهْدُ إسماعيلَ، وقد بهرهُ العلمُ ومعاهدُهُ في أوربّةَ، لم
يجد في الاستعانة بعلمائها غَضَاضَةً ولا ملامةً، بل إنه رأى
الانتفاعَ بنتائجِ عقولِهِم وتِمَارِ أِفْهَامِهِم أمراً لازماً، فجاء بكثيرٍ من

أساتذتهم ومُرَبِّيهِم ، وبَثَّهم في أُمَّاتِ المَدَنِ المِصْرِيَّةِ ، وأمرهم أن يترسموا في تَريديتهم وتعليمهم طُرُقَ المؤدِّين هناك ، حتَّى ينشأ على صِفافِ النِّيلِ شعبٌ يشبه في علوميهِ ومعارفِهِ ومدنيته الشعوبَ الأوربيةَ ، وحتَّى تتصلَ الأفهامُ الأوربيةُ بالأفهامِ المِصْرِيَّةِ ، رَغْمَ ما بينهما من بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ موجٌ من فوقِهِ موجٌ .

فلما أَدَّ ذَنْهُ مُؤَدَّنُ السَّعَادَةِ في مِصْرَ ، وَوَلَّى أَمْرَها خَيْرُ مَنْ حَكَمَها جِلَالَةُ مولانا الملكِ أَحْمَدُ فُؤادِ الأولِ ، تَقَدَّمَ إلى هَؤُلاءِ العُلَماءِ والمُسْتَخْدَمِينَ ، أنْ امْضُوا في سَبِيلِكُمْ ، وارْتَقُوا بِشَعْبِي وَأَبْناءَ أُمَّتِي إلى أَوْجِ الكَمالِ ، وَعِما قَلِيلٍ تَسْتَغْنِي بِلادِي بَعْنِ أَنْجِبَتِهِم مَعَاهِدُها وَمَعَاهِدُ بِلادِكُمْ ، عَنِ وُجودِ العِلْمِ مِنْ مِناهِلِكُمْ ، وَسوفَ تَسْجِلُ لَكُمْ على صَفحاتِ قُلوبِها ما أَسَدَيْتُمْ إِلَيْها مِنْ جَمِيلٍ ، وَتَجْزِيَكُمْ أَجْرَ ما صَنَعْتُمْ ، وَتُودِّعُكُمْ وَداعَ الذَّاكِرِ لِلْمَعْرُوفِ ، الشَّاكِرِ لِلصَّنِيعِ .

هَكَذا ظَلَّتْ مِصْرُ في أَيامِ نَهْضَتِها العَلَمِيَّةِ ، تَسْتَعِينُ بِأَهْلِ العِلْمِ في أَوْزُبَةٍ حَتَّى تَوْثِقَتْ بَيْنَها عُرَا المَحَبَّةِ ، وَقَوَّيَتْ أَواصِرُ

الألفة، أرايتَ يا هذا لو أن هؤلاء المصلحين وَكَلُّوا أمرَ التعليم
والمناصب الكبرى في مصرَ إلى أبنائها منذُ وُلُّوا أمرَها أكانت
تقومُ للعلم فيها قاعةٌ؟ أم كنا لا تزالُ في بحار الجهلِ غارقين؟ اللهم
اجزِهِم بالإحسان إحسانًا، وانجعلنا من عبادك الذين يشكرون
للمحسنين ولا يَكْفُرُونَ نِعْمَهُ.

(٣٠)

البُعوثُ العلمیة (١)

لم یرضَ محمدٌ علیّ باشا للشعبِ المصری أن تحتکمَ فیهِ الجنودُ
الأجنبیةُ . ولا أن یدفعَ عنه ویتولّى حِراسَتَهُ إلاّ أبنائَهُ — لذلك
دعا المصریین الی الجندیة . وألّف منهم جیشًا کان ولا یزال
معروفًا بالبسالة وحُسنِ النظامِ . إذا کان لم یأمنَ علی البلادِ شرُّ
الجنودِ المرتزقةِ . فهل یأمنُ علی عقولِ الشعبِ ومدارِکِهِ خطرَ
المعالمینِ الأجانبِ الذینِ كانت تُلجئُهُ الضرورةُ إلی تنصیبِهِم فی
مناصبِ التعلیمِ ؟ وهل یأمنُ علی المناصبِ الإِداریةِ والقضائیةِ
والمالیةِ الکُبَرى فیجعلُها فی أیدی الأجانبِ ؟ کلا . إن هذا
البطلَ وضعَ نُصبَ عینیهِ منذُ حَمَلَ أُمْرَ مصرَ أن یمنحَها استقلالًا
تامًا ، فی العلمِ ، والصناعةِ ، والزراعةِ ، والجندیةِ ، والمالیةِ . لذلك
قام بکل أنواعِ الاصلاحِ دفعةً واحدةً وعَهِدَ بکثیر منها الی
ذوی الخبرةِ من رجالاتِ أورُبّةَ لغدمِ وجودِ الأکفاءِ من
المصریین ، علی أن استخدامَهُ هؤلاءِ الأجانبِ لم یکنْ إلاّ رَیثًا

تعود نُخْبَةٌ من أبناء مصر، الذين بعث بهم إلى أوروْبَّةَ لِيَرِدُوا
فِيهَا مَنَاهِلَ الْعِلْمِ ، ويعرفوا مبلغَ ما وصل إليه القومُ من المدنية ،
والحضارة ، والنظام ، فيتولَّى أفرادُ هذه النخبةِ مناصبَ التعليم
والإدارة وغيرهما ، وهكذا صارَ يبعثُ البعثُ تِلْوَةَ البعثِ ، ويُعهدُ
بإدارة دولابِ الأعمالِ في البلادِ إلى أبنائها الذين عادوا من أوروْبَّةَ
كِبَارَ العقولِ عُشَّاقِ النظامِ .

إذا كان هذا عملَ المنشئِ فما بالكَ بحفيدهِ إسماعيلَ باشا ،
الذي انعكس في بحار المدنية الأوروْبِيَّةِ ، وامتلات نفسه إعجاباً بها
أظنك لا تشكُّ في أنه جعل لتلك البعثاتِ الشانَ الأولَ من
رعايته ، كانت نفسه تحذثه دائماً بأن يجعلَ مصرَ قطعةً من
أوروْبَّةِ علماء ومدنية ونظاماً ورقياً ، لذلك كان لا يدَّخِرُ وسعاً
في نقل مدنيّتهم ، وعلومهم إلى مصر ، وكان لا يرى طريقاً أنجعَ
لذلك ، من أن يبعثَ بأبناء مصر إلى معاهدِ أوروْبَّةِ ومعارضها
العلمية ، ويلحقهم بها على نفقته ، فإذا أتموا الدراسةَ وجاءوا مُزوَّدين
بخير العلوم ولأهم إدارة شئون البلاد ، فكانوا لها خيرَ المصلحين .

(٣١)

البعوث العلمية (٢)

إذا أنت طُفْتَ ممالك أورُبَّةَ ، وتنقلتَ بين دُولَاتِهَا ،
ودخلتَ مدارسَهَا ، قلَّ أن تجدَ مملكةً ، أو دُولَةً أو مدينةً ، أو
مدرسةً خاليةً من فِتيانٍ مصريين ، وإذا أنت سألتَ هؤلاء
الذين انتشروا في أرجاء أورُبَّةَ انتشاراً عظيماً ، ما جاء بكم إلى
هذه الديار النائية ؟ أجابوك إننا طلابُ علمٍ ورُؤادُ عِرْفانٍ ، وبُغَاةُ
مدنيةٍ ، وَجَّهْنَا إلى هذه الوُجْهَةِ ، وسَلَكْنَا في هذا السبيلِ ،
مليكنَا الأُمجدُ ، أحمدُ فؤاد الأول ، الذي أعظمَهُ أن يرى المدنية
الأورُبِّيَّةَ قد بلغت من الرقي شأواً بعيداً ، والمصريون تنقصُهم
هذه المدنية ، ويُعَوِّزُهُم عِرْفَانُ أسرارِ المخترعاتِ الحديثة . تقدم
صاحبُ الجلالةِ إلى رجالِ حكومتهِ ، أن يختاروا من أبناءِ
أمتي ناشئين نابِهين ، ذوى أخلاقٍ فاضلةٍ وعقولٍ راجحةٍ ، وحبٍّ
للعلمِ غريزيٍّ . وأشخصُهم على نفقةِ بيتِ المالِ إلى المدائنِ
الأورُبِّيَّةِ . وألحقُهم بجامعاتها العلمية . ولتتفرَّد كلُّ طائفةٍ

من طوائف المبعوثين بالتخرج في نوع من العلوم واختاروا طائفة من فتيات مصر، يجرى عليهن ما جرى على إخوانهن، وولوا على الجميع رُقباء ذوي خبرة بعلم النفس والأخلاق، ودراية بما تحتاج إليه بلادى في مرافق حياتها، فإنى أرى ذلك خير وسيلة لإنهاض مصر. والصعود بها في مراقي الفلاح.

وإذا أنتم ألفتُم تلك الوفود العالمية. فلا تدعُوهم يرحلون حتى يقفوا بين يدي. ويسمعوا لنُصحي، صدع رجال الحكم بالأمر ومثل كل منهم بين يدي المليك، ومعه نخبة من شباب مصر الناهض، فابتسم في وجوههم ابتسامة الوالد الشفيق لأبنائه البررة، ثم نثر عليهم دُرر نُصحه ولآلى وعظه، وكان فيما قال لهم: أيها الأبناء تفارقون اليوم وطنكم الى وطنٍ لم تألفوه. لتردوا موارد العلم ثم تعودوا إن شاء الله للاشتراك في بناء مجد وطننا العزيز. فإذا ما حططتم رحالكم هناك، فاجعلوا نصب أعينكم تثقيف عقولكم، وانظروا في عادات القوم وأخلاقهم، فما كان منها موافقا لمبادئ ديننا الحنيف فتخلَّعوا به، وما كان مخالفا لها

فَتَحَلُّوا عَنْهُ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِكُمْ مَظَاهِرُ الْقَوْمِ الْكَاذِبَةِ ، وَلَا
تُتَسَبِّحُكُمْ لَعْنُهُمْ لَعْنَكُمْ ، فَإِنَّ فِيهَا فَخْرَ الشَّرْقِ وَالشَّرْقِيِّينَ ، وَأَنْتُمْ
بَعْدَ ذَلِكَ قَافِلُونَ .

فَأَجَابَ الطَّلَابُ : فِي طَاعَتِكُمْ نَسَافَرُ ، وَعَلَى وِلَايَتِكُمْ نَقِيمُ ، وَعَلَى
بِرْكَتِكُمْ نَعُودُ ، وَفِي بِنَاءِ مَجْدِ الْوَطَنِ تَقْضِي حَيَاتَنَا ، بَقِيَّتَ لِمَصْرَ
ذُخْرًا ، وَبَقِيَ لَهَا فَارُوقٌ فَخْرًا .

(٣٢)

الصناعة (١)

كانت الصناعة ولا تزال عنوان رقي الأمم، ومبأة فخرها لأنها نتيجة أعمال العقل وإجهاد الفكر، فإتقانها دليل الذكاء وبرهان النبوغ، ألم تر إلى الأمم الغريبة التي ملكت زمام الصناعة في العالم وقبضت على ناصيتها. كيف تعدو على الشعوب الشرقية فتملكها، وتنقض على الدول الضعيفة، فترهبها في أوطانها، ولا سلاح للغاصبين إلا ما صنعت أيدي أبنائهم، فهم يلوّحون للضعيف بمصنوعات خلافة، تأخذ بلبه، وتملك عليه مشاعره، ثم يتتاعون حرته واستقلاله بمثل هذه المصنوعات، التي لا يرى لنفسه غنى عنها.

لعلك بعد ذلك عرفت أن الصناعة سر رقي الأمم، وأن محمد علي باشا قبض على زمام مصر وليس للصناعة فيها سوق رابحة. وأنه كتب على نفسه ترقية كل موارد الثروة فيها، وتقليل حاجتها إلى الأمم، وأنها خالية من العناصر الأولية للصناعة.

فليس فيها الفحم والحديد وهما قوامها وعماد ارتقاؤها، أهاب
بالمصريين أن اصنعوا بأيديكم ما تتطلبه حياتكم من أدوات
خشبية وثياب وآنية وما إلى ذلك، فأجابوا يُعوزنا المعلمون،
وتنقص بلادنا الآلات الصناعية، والمادة الأصلية للصناعة،
فروى قليلاً، ثم قال لأجتازن تلك العوائق، ولأجعلنّ للأيدى
المصرية مجالاً في الصناعة، ثم أمر فأنشئت مصانع المدافع،
والذخائر الحربية، والسفن البحرية، ومدارس النجارة، والبرادة
والحدادة، في حواضر البلاد، ثم أسلم ذلك لأحفاده المصلحين،
فلما أن جاء البشيرُ باعلاء نصير المدنية والحضارة إسماعيل باشا
عرش مصر سرت في دور الصناعة ومعاملها روحٌ جديدةٌ.
ونشط الصانع من عقالمهم، وتباروا في إتقان ما يصنعون، وزاد
نشاطهم ودقتهم كثرة المنشآت التي لا تقوم إلا على أيدي
الصانعين، كالقصور الشاهقة، والسكك الحديدية، والقناطر،
ولعل تشجيع إسماعيل باشا للصناعة، والصناع في عهده السعيد
إن لم يزد في قيمته عما عمل لها محمد علي باشا، فإنه لا يقل عنه
وكلاهما صاحب فضلٍ عليها لا يُنكر، وجميل لا ينسى.

(٣٣)

الصناعة (٢)

هل أتاك حديثُ المدارسِ والمعاملِ والملاجئِ الصناعيةِ في
القاهرةِ، والإسكندريةِ، وأسيوطِ، والمنصورةِ، وبورسعيدِ،
وغيرها من مُدنِ الوادي وقراه؟ هي دورٌ للصناعة عامرةٌ،
وميادينٌ للذكاءِ المصريِّ، والمهارةِ الشرقيةِ، يختلفُ إليها الناشئون،
مقتولون السواعدِ، أقوياء الأجسامِ، يتلقون العلومَ العقليةَ من
معلمين أكفاء، ويتعلم كلُّ فريقٍ منهم الصناعةَ التي يكون لعقله
ويده فيها مجالٌ. ثم يغادرونها بعد أن يبرعوا في حرفهم، وينبشون
في البلاد وينشئون المصانعَ والمعاملَ الأهليةَ بين ربوعها، وإذا
شئت أن تعرفَ مبلغَ رُقَى الصناعةِ في بلادك، وتكاثُرَ عددِ
الصناعاتِ فجُلِّ بين أسواقها، وطُفِّ بمحاليجِ القطنِ، ومناسِجِ
التيابِ، ومدابغِ الجلودِ، ومطاحنِ الحبوبِ، ومعاصرِ الزيوتِ
والسكرِ، ومضاربِ الأرزِ، ومصانعِ الأنسجةِ، ومصانعِ

الاحذية، ومعامل النجارة والحداة، فإنك واجدٌ فيها، ما يُثلجُ صدرَ المصريِّ، ويُبشِّرُه بمستقبلٍ للصناعةِ عظيمٍ، وإذا رُمِتَ أن ترى مهارةَ البناءِ، وبراعةَ النقاشِ، وذكاءَ المهندسِ، فادخلْ قصرًا من قصورِ سَراةِ النَّاسِ في بلادنا، وتأملْ ما حاكته فيه وفي أثاثه يدُ الصانعِ المصريِّ، تَرَّ العَجَبَ العُجَابَ من الدقة والإتقان .

كانت الشكوى من جهلِ الصانعِ المصريِّ وسوءِ أخلاقه، وعدمِ وفائه، بالغةً عَنانَ السماءِ، وها هي ذى المدارس الليلية قد فتحت لتَهذيبِ نفسه، وتقويمِ أخلاقه، وتمويده الاعتمادَ عَلَى النفسِ والميلَ إِلَى المعالى .

أتدرى يا هذا فى أى عهدٍ بدأت الصناعةُ المصريةُ تَرُقَى والصانعُ يَحْنِي جَنَاحًا؟ أتدرى لمن يرجعُ الفضلُ فى الأخذ بيدِ الصناعةِ والصُّنَّاعِ؟ إن ذلك كان فى أزهى عصورِ المدنيةِ والعلمِ، عصرِ جلالَةِ مولانا الملكِ أحمدَ فؤاد الأولِ، عرف للصناعةِ خَطَرَهَا وقيمتَهَا فى النهوضِ بشعبه فأولَّاهَا عنايةً، ومنحها رعايته،

وشاد مدارسها ، وأنشأ معارضها ، وكافأ المجيدين وشجّع الماهرين ،
أرايتك لو أخبرتك بعد أن وقرّ في ذهنك أن مصر بلاد زراعية
وليست صناعية أن الصناعة المصرية ستأخذ زخرفها وتزيّن
أكنت مُصدّقاً ؟ لو لا أن رأيت بعينك ، وسمعت بأذنك ،
ما تلقى الصناعة والصناع كل يوم من تشجيع المليك المحبوب ؟
حرس الله ذاته الشريفة ، وكلأ وليّ عهده الأكرم .

(٣٤)

النساجة

حاجة الإنسان إلى الثياب لا تقل عن حاجته إلى الطعام والشراب ، فهو يتقي بها حرَّ الهجير ، وبرْدَ الزمهرير ، ويتخذها زينة له ، ويتجمل بها في المحافل ، ويعظم بها في العيون ، وأسعد البلاد ما لبست من نسج أيدي أبنائها ، وأسعد النساجين من تيسر لهم تحصيل الخيوط من بلادهم .

لم تخف هذه الحقائق على محرر مصر ومنقذها ، بل وضحت له وضوح الشمس في رابعة النهار .

نظر فإذا هو يجد البلاد خالية من عناصر النساجة اللهم الا قليلاً من الكتان ، فإذا أعد لتلافي هذا النقص العظيم ؟ . لم يشأ أن يعالج مريضه علاجاً مسكناً لآلامه فقط ، ولكنه عمل على استئصال الداء ، ف جلب الأغنام من البلاد الأجنبية ، وأعد لها المراعى ، وجلب دودة القز ، وزرع لها أشجار التوت وجلب القطن كما علمت من الهند وعنى بترقية زراعة الكتان في مصر ، وما هو إلا قليل ، حتى أنشأ المنازل لغزل القطن ، والصوف ،

والحرير، والكثان، وتلا ذلك إنشاء مناسج الثياب على اختلاف أنواعها في حواضر مصر وقراها، وما مناسج دمياط، والمحلة الكبرى، والقاهرة، والإسكندرية، وإخميم، وفوة، وغيرها إلا ثمراً لغرس هذا المصلح العظيم.

على أن اختراع المغازل والمناسج التجارية في بلاد الغرب شلَّ يد الصانع المصري الذي لم يجد من يأخذ بيده بعد البطل الكبير، فأصاب النساجة في بلادنا ما أصاب غيرها من الهزال، وكِدْنَا نَكُونُ عالةً على الأمم الغريبة، إن شاءت لبسنا، وإن شاءت عرينا، لولا أن تدارك الله الكنانة بلطفه، ومن عليها بمُخَيِّ مجدها، ومُجِدِّدِ عزِّها، مولانا الملك أحمد فؤاد الأول، الذي جرت في عهده السعيد مياه الحياة في أجسام المناسج الأولى، وأنشئت المغازل والمناسج على الطراز الأوربي في كثير من نواحي القطر، وليس يمضي غير قليل، حتى يرَفُلَ كل مصري في أثواب حاكَّتْها أيدي أبناء جنسه، وتحقق أمنية ملكنا الأعظم، فيرى أمتَه غنيةً بزراعتها وصناعاتها وتجارتها عن غيرها من الأمم.

(٣٥)

التجارة

كانت التجارة ولا تزال من أقوى أسباب التعارف والتآلف ،
ولا أدل على شرفها وسمو مكانتها من اشتغال الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام بها ، ورواج أسواقها في أمة من الأمم دليل الحياة ،
والنشاط ، والرخاء ، وبعْد الصيت ، وتبيع البلاد عادة ما زاد عن
حاجتها من ثمار بلادها ، وتبتاع ما تحتاج إليه من موارده الأصلية ،
تسلم محمد علي باشا مصر ، وقد قطع الظلم والاستبداد والتأخر
كل رابطة بينها وبين غيرها من الأمم ، حتى صارت بمنزلة عن
العالم ، بعد أن كانت من أعظم الأمم التجارية في عهدها القديم ،
فأراحها أولاً من علة شقائها (الماليك) ، ثم أقبل على تغويرها فأنشأ
بها المرافئ ، وفتح أبوابها للتجار من الأمم الراقية ، ورحّب بهم
ويعتاجرهم ، وسهل لهم نشر بضائعهم في البلاد ، وأمنهم على أنفسهم
وأموالهم ، ولعله أراد أن يآلف المصري معاشر الأجانب ، ويرى
آثار صنيع أيدي الأجانب فتولد عنده الرغبة في محاكاته وكذلك

أنشأ سفناً تجارية شراعية، وجعلها تغدو وتروح بالمتاجر في البحر
بسلام، بين ممالك أوربة الجنوبية ومصر، حتى إذا كان عهد
المصلح العظيم، إسماعيل باشا دبت في التجارة المصرية روح
جديدة، ونشطت نشاطاً عظيماً، وأقبل الأجانب من كل فج
بمتاجرهم آمنين مطمئنين، وكثر تبادل المنافع بيننا وبينهم،
وانتشرت في بلادنا مخترعاتهم الحديثة التي أراد إسماعيل باشا أن
يجعلها نواة مدينتنا وحضارتنا، وكذلك أقبل ذوو الأموال
العظيمة، وأنشئوا المصارف في مصر، فسهلوا طرق البيع والشراء
وأعانوا المصري في تجارته وصناعته وزراعته بما أقرضوه من المال،
وأنشئت المحاكم المختلطة، وأصلحت المرافئ، وبُنيت الأساطيل
التجارية والبريدية، وهكذا اتجهت أنظار الدول نحو مصر،
فأقبلن على قطنها وحبوبها يشترينها، وجئن بمصنوعاتهن،
وخشبهن، ومعادنهن، وملأن بها البلاد.

ظلت التجارة في مصر نامية نماء طبيعياً، حتى جلس على أريكها
سليح المجيد جلالة الملك أحمد فؤاد الأول، فانتظم سبل التجارة
فيها، بعد أن ارتقت زراعتها، وانتشرت طرق المواصلات فيها،

وَعَمَّ الرِّخَاءُ أَرْجَاءَهَا ، وَفُتِحَتْ لِتَعْلِيمِ أبنَاءِ الأُمَّةِ المَدَارِسُ التِّجَارِيَّةُ ،
وَأُنشِئَتْ فِي عَوَاصِمِ القَطْرِ بُيُوتُ التِّجَارَةِ الَّتِي يَأْخُذُ جِوَالُهَا وَتَنْسِيقُهَا
بِمَجَامِعِ القُلُوبِ ، وَيَكَادُ المرءُ يَلْمَسُ يَدَهُ النِّشَاطَ التِّجَارِيَّ فِي أَى
صُقْعٍ مِنَ الأَصْقَاعِ المِصْرِيَّةِ ، وَإِذَا كَانَتْ زِيَادَةُ أَثْمَانِ مَا تَبِيعُهُ أُمَّةٌ
عَنْ أَثْمَانِ مَا تَشْتَرِيهِ دَلِيلًا عَلَى الرِّخَاءِ وَالغِنَى ، فَإِنَّ المِصْرِيَّ لَيُبَشِّرُ
نَفْسَهُ بِمُسْتَقْبَلٍ عَظِيمٍ لِبِلَادِهِ ، وَيَتَمَنَّى أَنْ تُثَرَّتْ مِصْرُ فِي عَهْدِهِ
عُمَرًا طَوِيلًا .

(٣٦)

الحروب

تجلّت بسالةُ المصريّ في ثلاثة عصورٍ من عصوره التاريخية .
فقد دَوَّخَ المصريون الممالك . وفتحوا البلدان . ونشروا رايّتهم
على أكثر الأمم الآسيويّة في زمن الأسرتين القديمتين الثامنة
عشرة والتاسعة عشرة ، ووقفوا في وجه الصليبيين وقفة الأسود
في عصر الفاطميين والأيوبيين ، وأظهروا من الإقدام والشجاعة
ما لا تزالُ الأممُ تتحدثُ به في عصر الفاتح العظيم محمد عليّ باشا
فقد ولى أمرَ مصرَ وسلسلةُ الفتن فيها محكمةُ الحلقاتِ ،
والمصريون فريسةٌ بين أنياب الغاصبين ، فأطفأ في البلادِ نيرانَ
الفتنِ ، وأنقذ السكانَ من الفناء ، وألّفَ فيها جيشاً عظيماً من
أبنائها الذين استكانوا للظلم زمناً طويلاً ، وفقدوا كل مزايا البسالةِ
والإقدامِ ، فلما اشتعلت نيرانُ الحرب بين اليونان والدولة العثمانية ،
وأرادت الأولى أن تحرّر شعبها من حكم العثمانيين ، لم تجدُ الدولةُ
قائداً أشجعَ ولا جيشاً أبسلَ ، من محمد عليّ باشا وجيشه المصريّ .

فاستعانت به في إخماد هذه الثورة ، وإطفاء نيران تلك الفتنة ،
فلبى الدعوة وأمر على الجيش المصري القائد المظفر ابنه
إبراهيم باشا ، وسيره في أسطول بحري مصري ، فمضى هذا
البطل الكبير على رأس الجنود المصريين البواسل ، تشق بهم
السفن عباب البحر نحو بلاد اليونان ، وما هو إلا أن تلاقى
الجيشان ، ودارت رحى القتال ، ونصر الله المصريين نصراً عزيزاً ،
فاستولى إبراهيم باشا ، على حصون اليونان ومعاقلم ، بعد أن
شنت شملهم ، وسبى وغنم منهم شيئاً كثيراً ، وما كاد ينتشر
خبر هزيمة اليونانيين في أوربة حتى أقبلت أساطيلها ، وجيوشها
لحماية اليونان ، وإرغام الدولة العثمانية على تسريح الجيش المصري ،
فعاد إبراهيم باشا ، بعد أن كتب بالسيف ، أول سطر من سطور
تاريخ مصر الحديث .

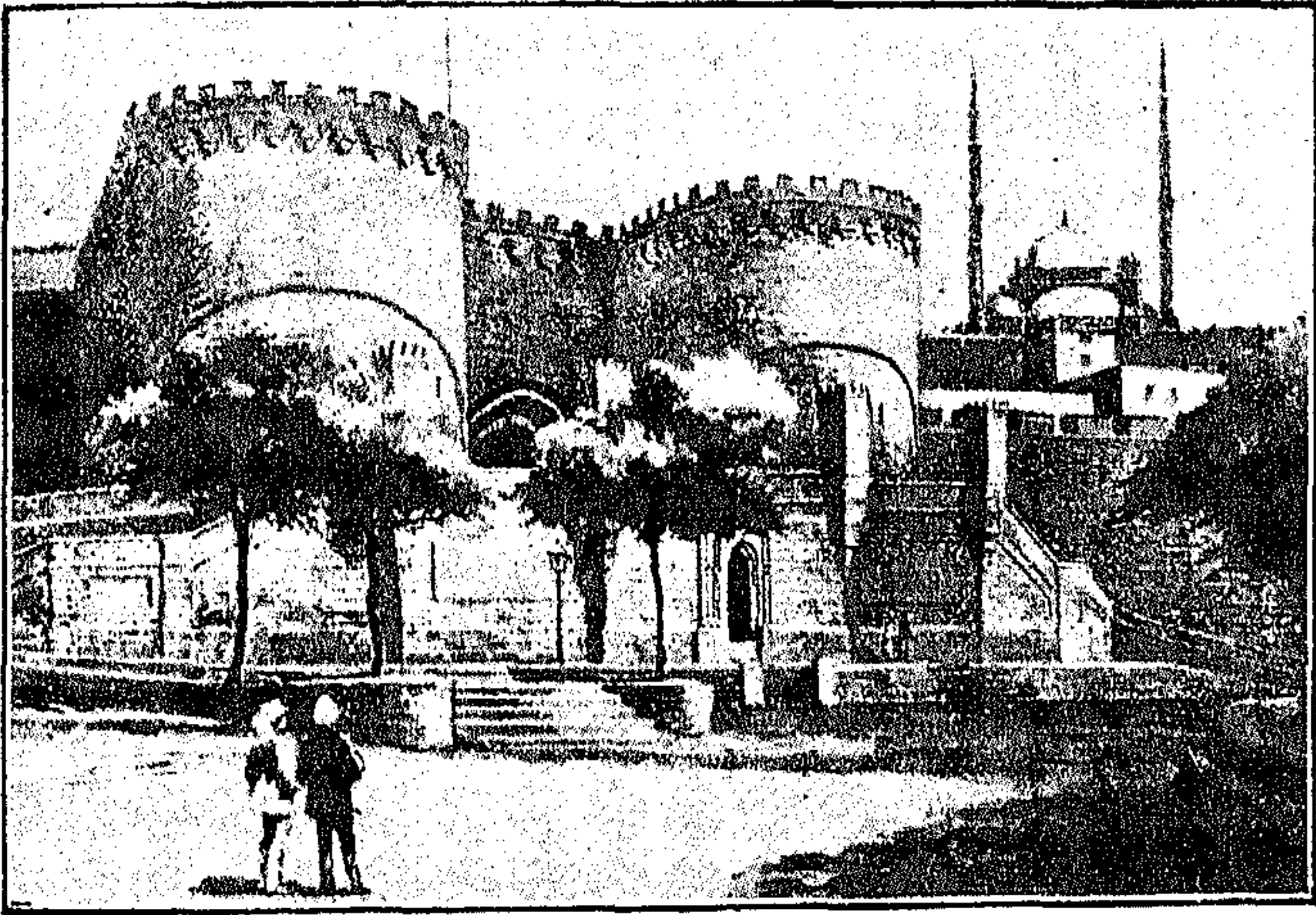
ولما رأى محمد علي باشا ، أن كثيراً من المصريين يفرّون من
وجه الإصلاح إلى بلاد سوريّة ، وأنّ ولايتها كانوا يؤوون
الفارين حقدًا على هذا البطل ، خاف محمد علي أن يقلّ عدد
السكان ، بعد أن نيف عدد الفارين على خمسة عشر ألفاً ، فأعدّ

جيشاً مصرياً جراراً تحت إمرة إبراهيم باشا وسليمان باشا
الفرنساوى ، وحارب ولاية سورية وكبار قواد الدولة العلية في
تلك البلاد ، وهزمهم هزائم منكراً ، لا يزال يرن صداها في
آذان العالم ، وليست حروبه حين فتح السودان بأقل أهمية من
الحروب السالفة ، لعلك تدرك بعد ذلك أنه باذر بذور الشجاعة
في قلوب المصريين ، وأن البلاد بلغت في عهده من القوة والمنعة
والرخاء والنظام مبلغاً كبيراً ، حتى ساغ له أن يحارب أقوى
الجيوش في تلك الأيام ، وأن دول العالم صرّحت بحسبته للمصريين
حساباً بعد انتصارهم في تلك المواقع العظيمة ، وأن الفضل في
كل ذلك يرجع للقائد الأعظم والفاتح الكبير محمد علي باشا .

(٣٧)

قلعة الجبل

إلى الجنوب الشرقي من مدينة القاهرة وفي سفح جبل المقطم
أنشأ السلطان يوسف صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية في



القلعة

مصر قلعة شاهقة البنيان، منيعة الأركان، ليتخذها هو وخلفاؤه
مقرًا لمُلْكِهِمْ، ومسكنًا لأسراتِهِمْ، وليعتصموا بها إذا أريدوا
بسوء. ولقد ظلت هذه القلعة حصن الدولتين الأيوبية والمماليك

الحصين ، ورُكْنَهُمَا الركين . وكثيراً ما زاد ملوكهما في بنائها
ومعاقلها . ثم طاف بها طائفُ العفاء والإقواء أيامَ حُكْمِ العثمانيين .
وتداعت أركانها ، وعَبِثَتْ بها أيدي البلى حتى وليَ مصرَ مُوجِدُهَا
محمدُ عليّ باشا ، وأراد أن يتخذَ له ديواناً يجعلُه مَسْكَنَ أُسْرَتِهِ ،
ومقرَّ ولايته ، يختلفُ إليه حكامُ البلادِ ونوابُها ، ومدبرُ وشئونِها
فلم يجدْ مكاناً أرفعَ ، ولا حصناً أَمْنَعَ ، من تلك البقعة التي وضع
أساسُها رأسُ الدولةِ الأيوبيةِ ، فأمرَ فُجِدَّ بِبِنَائِهَا ، وشُيِّدَتْ
فيها القصورُ الفخمةُ ، والمكاتبُ البديعةُ ، وأنشِئَتْ الحدائقُ
الغناءُ وجعلها مقراً لولايته مدةَ حُكْمِهِ ، ولعلَّ موقعها هو الذي
ساعده على الفتكِ بالماليك ، حتى أراحَ منهم البلادَ والعبادَ .
وإن شئتَ أن ترى أبداعَ أثرِ إسلاميٍّ دينيٍّ ، فذاك جامعُ
محمدِ عليّ باشا ، الذي أنشأه في قلعة الجبل ، على هيئةِ المساجدِ في
الآستانةِ ، وطلَى حيطانَهُ وسَقَفَهُ بالذهبِ الخالصِ . وفرشه بغالى
الرياشِ . وجعل له مئذنتين عظيمتين يراها الإنسانُ من أى جهةٍ
من جهاتِ القاهرةِ .

وبنى لنفسه قبراً في هذا المسجدِ ، وأوصى أن يُدْفَنَ فيه بعد

موته . وهكذا تراه جمع في مكان واحد ، بين عظمة الملك وأبيه
السلطان ، وبين روعة الموت وخوف الملك الديان
ولى المصريون وجوههم شطر القلعة في حياة هذا البطل ،
يستدرّون خيرها ، ويستمتطون برّها ، ويتلقّون أمرها .
ويفتدون بأرواحهم مجدّد عزّها ، ويسألون ربّهم أن يمدّه بنصر
من عنده ، حتى يخلص بلادهم من رقّها ، فلما أن صار عرين الأسد
ومصدر الحكم ، ومنبع الأمر والنهي ، ضريحاً لرقات المصلح
الكبير ومثوى لجسده الشريف ، لم يحول المصريون وجوههم
عن القلعة بل وقفوا بين يديها ، وشخصوا بأبصارهم إليها ، ورفعوا
أيديهم إلى السماء خاشعين خاضعين ، وسألوا الله سبحانه وتعالى
أن يمطر هذا القبر الشريف شأيب رحمة ويسكن صاحبه
فسيح جنته . . .

ولا يزالون يستمطون له الرضوان ، ويتوسلون إلى الله
تعالى بخير الأنبياء ، أن يحفظ البيت المحمدي العلوي ، ويوفّق
ملوكه وينصرهم على أعدائهم نصراً عزيزاً

(٣٨)

عَظَمَةُ هَجَلٍ عَلَى بَاشَا

إِنَّ الْكِبَارَ مِنَ الْأُمُورِ رِ تَنَالَهَا الْهِمَمُ الْكِبَارُ

لَمْ يَكُنْ لِأَيِّهِ عَرْشٌ مُسْلُوبٌ فَيَنْهَضَ لِاسْتِرْدَادِهِ ، وَلَا مُلْكٌ مُنْتَصَبٌ فَيَقُومَ لِلشَّارِ مِنَ الْغَاصِيينَ ، مَا هَذِهِ الْقُوَّةُ فِي مَظْنَةِ الضَّعْفِ ؟ مَا هَذَا الْمُلْكُ الْوَاسِعُ فِي مَرْتَعِ الْفَقْرِ الْمُدْقِيعِ ؟ تِلْكَ النَّفْسُ الْكَبِيرَةُ ، وَالْهَمَةُ الْعَظِيمَةُ ، وَالنَّظَرُ الْبَعِيدُ ، وَحُبُّ الْمَعَالِي وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْعِظَاءِ ، جَعَلَتْهُ يَسْتَسْهِلُ كُلَّ صَعْبٍ ، وَيَسْتَعِزُّ كُلَّ مُرٍّ . وَيَسْتَنْكِرُ عَلَى الْمُلُوكِ اسْتِثَارَهُمَ بِالْمُلْكِ ، وَعَلَى الْأَغْنِيَاءِ احْتِكَارَهُمَ لِلْمَالِ ، فَشَبَّ مُعْتَمِدًا عَلَى نَفْسِهِ ، غَيْرَ قَانِعٍ بِمَا يَقْنَعُ بِهِ أَمْثَالُهُ الْإِيْتَامُ وَالْفُقَرَاءُ ، يُلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْمَآزِقِ الضَّيْقَةِ وَيُنْغَمِرُ بِهَا فِي الْخُطُوبِ الشَّدِيدَةِ ، وَيَلْقَى الْحَوَادِثَ بِصَدْرِ رَحْبٍ وَجَنَانٍ ثَابِتٍ ، وَثَغْرِ بِاسْمٍ ، رَادَّ نَفْسَهُ عَلَى احْتِمَالِ الْمَكَارِهِ ، وَأَخْذِهَا بِالصَّبْرِ ، وَالتَّجَلُّدِ عِنْدَ الْمَمَاتِ ، وَتَحَلُّيْ بِصِفَاتِ الزُّعْمَاءِ وَالْمُصْلِحِينَ ، فَالْبَطُولَةَ ، وَالْجُرْأَةَ ، وَالصَّبْرَ ، وَالْعَدْلَ ، وَحُسْنَ

السياسة ، وبعْدُ النظر ، من أخصِّ صفاته ، أليست تتجلى لك بطولته في وقائمه الحرية جُندياً ووالياً ؟ أليست تُحسُّ جرأته وإقدامه في منشآته العظيمة في مصر ، وفي حروبه العديدة ، وفي مواقفه الكثيرة ، التي خلعتُه الدولة العلية فيها ، وهو لا يزداد إلا ثباتاً ورسوخاً ؟ أليست ترى صبره وتجلده وقد وقفت في وجهه الصعاب ، واعترضته العوائق ، فاجتازها وتخطاها ؟ أليس العدل يتجلى في أحكامه ، وفي استشارة أهل العلم من المصريين ؟ أليس حُسن السياسة يبدو من خلال تقربيه من المصريين ، وتحببه إليهم ، منذ وطئت قدمه أرضهم ، واستعانته ببعض العصاة من جنده على البعض ، حتى خلا له وجه البلاد ، فأنشأ فيها ما شاء من مرافق الحياة ؟ أليس بعْدُ النظر واضحاً في كل أدوار حياته ، فما هم بأمير إلا كان حسن العاقبة ؟ أليست تراه بعد كل ذلك ملكاً عظيماً ، نال ملكاً عظيماً ، بأصالة رأيه وحادِ سيفه ؟

أترى أن مصر طال فيها أمدُ الظلم ، وانتشر فيها ظلُّ الاستعباد ، وجفت مياه الحياة في جسمها ، فنظر الله إليها نظرَ

عطفٍ وحنانٍ ، فأرسل إليها هذا الملاك الطاهر ، ليخرجها من
الظلمات إلى النور ، ويوصي بها أبناءه وأحفاده من بعده ليكونوا
لها خير الحاكمين ؟ أم أن هذا البطل الكبير ، تحلى بصفات
العظمة ، وكسر السلسلة المألوفة من مسكنة الأيتام وذللهم ،
وعرف لنفسه قيمتها ، فخطب لها المعالي وأغلى مهرها ، وأخذ بيد
شعبٍ مستضعفٍ ، فكافأه الله هو وسلالته الطاهرة بهذا الملك
العظيم ؟ اللهم إن كان هذا أو ذاك ، فإن مصر قد سعدت بعد
الشقاء ، وقويت بعد الضعف ، وجرت في ميدان المدنية والعلم
شوطاً بعيداً ، بفضل أمجاد هذه الأسرة المباركة . والشجرة
الطيبة ، جزاهم الله أجر ما كانوا يعملون .

(٣٩)

قَسْوَةُ مَحَلٍ عَلَى بَاشَا

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

قضى المصريون عدة قرونٍ تحت سيطرة المماليك والعثمانيين، وهؤلاء كما علمت كانوا شرًّا الحاكمين، فقد حالوا بين الشعب ونور العلم بسد منيع، حتى ألفت الناس الجهل، واستحبوا العمى على الهدى، وأرهبوه بالمكوس التي كانوا يضربونها على زراعته وتجارته حتى كره العمل وسيم الحياة، وصار لا يحرث الأرض، ولا يرعى الماشية، إلا طاعة لأمر الحكام، وخوفًا من بأسهم وسلطانهم، وأحاطوا البلاد بسياج من الجنود الأجنبية، التي كانت تسوم المصريين الذل والعذاب، حتى تربى الشعب على الخوف والجبن، وكره الجنود ومن على شاكلتهم، تسلم البطل الكبير محمد علي باشا مصر وتلك حاليها علماء وعملاً وأخلاقاً، فلما أراد أن يرقّيها، وجد أهلها يفرّون من وجه الإصلاح فراراً، ففتح المدارس ودعا الناس إلى تعليم أبنائهم فيها فنفروا من ذلك،

وَعَدُّوا شُجَاعًا مَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْهَرَبِ بَابُهُ حَقٌّ لَا يَتَعَلَّمُ ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَتَسَوَّعَ عَلَيْهِمُ اتِّسَاعُ كَلْبِهَا ، حَقٌّ يَعْلَمُوا أُنْبَاءَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ .

دَعَاهُمْ إِلَى حَفْرِ الْجُدَاوِلِ . وَإِنْشَاءِ الْقَنَاظِرِ وَالْقَنَوَاتِ ، لِيَتَيْسَرَ لَهُمْ إِدْوَاءُ زُرْعِهِمْ ، وَاسْتِفْلَالُ أَرْضِهِمْ ، فَهَجَرُوا الدِّيَارَ وَلَاذُوا بِالْفِرَارِ ، فَكَانَ مَعْقُولًا أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى إِنْشَاءِ تِلْكَ الْمُنْشآتِ بِالْقُوَّةِ ، وَيُعَاقِبَ الْعَاصِينَ مِنْهُمْ أَشَدَّ الْعِقَابِ .

جَلَبَ بَذُورَ النَّبَاتَاتِ النَّافِعَةِ ، كَالْقَطَنِ وَغَيْرِهِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَزْرَعُوهَا ، فَمَا أَذْعَنُوا لِأَمْرِهِ إِلَّا بَعْدَ الضَّرْبِ وَالْإِيذَاءِ .

أَرَادَ أَنْ يُرِيحَ الْبِلَادَ مِنَ الْجُنُودِ الْأَجَانِبِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهَا جَيْشًا مِنْهَا ، يَذُودُ عَنْ جِهَاتِهَا وَيَثْبُتُ أَرْكَانَ اسْتِقْلَالِهَا ، فَدَعَا الشَّبَابَ إِلَى ذَلِكَ ، فَفَضَّلُوا الْمَوْتَ فِي ظِلِّ الْجَبَنِ ، عَلَى الْحَيَاةِ فِي ظِلِّ الشَّرَفِ وَالْفَخَارِ ، فَكَانَ مَأْلُوفًا جَدًّا أَنْ يَخْتِطِفَ الشُّبَّانَ مِنْ بَيْنِ أَهْلِيهِمْ ، وَيُؤَلِّفَ مِنْهُمْ جَيْشًا مِصْرِيًّا ، وَهَكَذَا ظَلَّ يَسُوقُ الْمِصْرِيِّينَ سَوَاقًا إِلَى مَنَابِيعِ السَّعَادَةِ ، وَيُرْغِمُهُمْ عَلَى وَلُوجِ أَبْوَابِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ إِرْغَامًا ، وَهَكَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْمِصْرِيِّينَ أُرْغِمُوا

عَلَى أَنْ يَكُونُوا سُعْدَاءَ ، وَلَا يَزَالُ عَامَةُ الْمَصْرِيِّينَ يَتَنَاقَلُونَ أَخْبَارَ
شِدَّةِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِأَشَا ، وَالْمَغْفُورِ لَهُ إِسْمَاعِيلَ بِأَشَا وَقِسْوَتِهِمَا ، وَيَقُولُونَ
إِنْ أَيَّامُهُمَا كَانَتْ مَسَارَحَ لِلظُّلْمِ وَالْإِسْتِبْدَادِ ، وَلَوْ عَلِمَ هَؤُلَاءِ
الْجَاهِلُونَ ، أَنَّهُمْ أُرْغِمُوا عَلَى أَنْ يَتَّبِعُوا لِأَبْنَائِهِمْ وَأَحْفَادِهِمْ يَبُوتًا مِنْ
الْمَجْدِ شَائِخَةً ، وَأَنْ هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءُ وَالْأَحْفَادُ يَتَمَتَّعُونَ الْآنَ بِمَا
خَلَّفَ الْآبَاءُ ، وَأَنْ الْقِسْوَةَ وَالشَّدَّةَ قَدْ زَالَتَا ، وَلَكِنْ ثَمَارَهُمَا لَمْ تَزَلْ
وَلَنْ تَزُولَ ، لَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ لَتَوَاصَوْا بِالشُّكْرِ وَالِدُعَاءِ ، لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ
الْمُبَارَكَةِ وَلَجِثُوا إِلَى اللَّهِ أَنْ يُبْقِيَهَا ذُخْرًا لِلْبِلَادِ ، وَمَلَاذًا لِلْعِبَادِ .

(٤٠)

البر بالإنسانية

إذا أنت رأيت رجلاً ألقى بنفسه في البحر لا تقاذ غريقاً ، ثم
سبح في الماء ودفع بهذا الغريق إلى الشاطئ حتى نجا من مخالب
الموت ، امتلأت نفسك إعجاباً بيسالته ورقة قلبه ، وحدث له
هذا الصنيع ، ورسمت صورته في الصحف ، وذكرت للناس
فضل هذا البطل العظيم .

وإذا أنت رأيت رجلاً أقبل على إنسان مُغمى عليه ، وحلَّ
أزراره ، وخلع نعليه ، ودغدغ أصابعه ، وحمله إلى مستشفى
قريب ، كلت له المدايح كيلاً ، وعددته من نصراء الإنسانية ،
وملأت بصورته وذكره الأرض طراً .

وإذا أنت رأيت رجلاً خاطروا بأنفسهم ، وخاضوا غمار نارٍ
اشتعلت في دار ، وأزهقت أرواح سكانها ، ثم خرجوا يحمل كل
منهم فرداً من أفراد الأسرة ، ويُسيِّفه بالعلاج ، امتلأ قلبك بحبِّ
هؤلاء الرجال وإجلالهم ، وقلت ملائكة أطهار ، وأذعت في
العالمين بطولتهم ، ودعوت الناس إلى الإشادة بذكرهم ، والنسج
على منوالهم .

وَإِذَا أَنْتِ رَأَيْتِ إِنْسَانًا أَعْمَلَ فِكْرَهُ حَتَّى اخْتَرَعَ مَخْتَرَعًا
جَدِيدًا، خَدَمَ بِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ، وَنَشَرَ الْمَدِينَةَ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ عَنَاءِ
كَبِيرٍ، قَلَّدَتْهُ مِنَ الْمَدْحِ الْقَلَائِدَ، وَمِنَ الثَّنَاءِ السُّمُوطَ .

وَلَعَلَّ مَا يَقْرَأُ كُلُّ يَوْمٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ وَالْأَحَادِيثِ، وَنَرَى مِنَ
الصُّوَرِ وَالرُّسُومِ، يَنْهَضُ دَلِيلًا عَلَى صَدَقِ مَا تَقْدُمُ .

إِذَا كَانَ إِعْجَابُ النَّاسِ وَتَعْجِيدُهُمْ لِمَنْ أَنْقَذَ غَرِيقًا أَوْ أَطْفَأَ حَرِيقًا
أَوْ وَاسَى مَرِيضًا أَوْ اخْتَرَعَ مَخْتَرَعًا قَدْ بَلَغَ هَذَا الْحَدَّ، فَمَا يَكُونُ
إِعْجَابُهُمْ بِمَنْ أَنْقَذَ أُمَّةً وَأُحْيَى أَجْيَالًا ؟ .

أَلَسْتُ تَرَى مُحَمَّدَ عَلِيٍّ بَاشَا وَأَبْنَاءَهُ وَأَحْفَادَهُ الْأَكْرَمِينَ، مُنْقِذِينَ
لِمِصْرَ مِنَ الْفَنَاءِ ؟ أَلَسْتُ تَرَاهُمْ تُخْرِجِيهَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ؟
أَلَيْسُوا مَعَالِمِهَا بَعْدَ الْجَهْلِ ؟ أَلَيْسُوا بَاعْثِيهَا مِنْ قَبْرِهَا وَنَاشِرِيهَا مِنْ
رَمْسِهَا ؟ أَلَيْسَ الْقَطْنُ الْمِصْرِيُّ . وَلَا غِنَى لِلْعَالَمِ عَنْهُ مِنْ غَرْسِ
مُحَمَّدِ عَلِيٍّ بَاشَا ؟ أَلَيْسَ مِنْ مَضُوءٍ مِنْهُمْ جَدِيرِينَ مِنَّا بِالذِّكْرِ لِلْفَضْلِ
وَالْعِرْفَانِ لِلْجَمِيلِ ؟ أَلَيْسَ وَارِثُ مُلْكِهِمْ حَقِيقًا مِنَّا بِالْحُبِّ الْخَالِصِ،
وَالْوُدِّ الصِّمِيمِ خَلِيقًا مِنَّا بِالطَّاعَةِ وَالْإِذْنِ ؟ مَا أَجْدَرُ كُلَّ مِصْرِيٍّ
أَنْ يَمْلَأَ بِحُبِّهِ فُؤَادَهُ وَيَتَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبٍ خَالِصٍ رَاجِيًا أَنْ يَمُدَّ
فِي أَجَلِهِ، وَيُسَمِّعَ الْأُمَّةَ الْمِصْرِيَّةَ بَيْقَاتِهِ، وَيُبْقِئَ وَلِيَّ عَهْدِهِ الْكَرِيمِ .



إسماعيل باشا

(٤١).

المغفور له إسماعيل باشا

في الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٨٣٠ وُلِدَ بِمِصْرَ
هذا البطلُ الكبيرُ إسماعيلُ باشا بنُ إبراهيمَ باشا ابنِ محمدٍ عليّ باشا،
وَنَمَى في حِجْرِ العِزِّ وترعرع في أحضانِ المُلِكِ ، وتعلم اللغاتِ
ومبادئِ الرياضياتِ، في مدرسة الأُمراءِ التى أنشأها جَدُّه لأبنائه
وأبناء أبنائه، فلما بلغ الرابعةَ عشرةَ من عُمُرِهِ، أُرسِلَ إلى قِيسَةِ
عاصمةِ النمسا ، وظل فيها سنتين يتعلَّمُ العلومَ الحديثةَ من كبارِ
المُؤَلِّمِينَ، ثم انتقل إلى باريسَ، وانتظم في سلكِ المدرسةِ المصريةِ
التي كان قد أنشأها جَدُّه هناك لتعليمِ أبناءِ الأُمراءِ وسَراةِ الأُمّةِ،
وهناك فاق الأقرانَ، ونَبِغَ في الرِّسْمِ، والعلومِ الهندسيةِ-نبوغاً
عظيماً، ثم جاء إلى مصرَ، وقد اكتمَلَ عقلُهُ، ففوجئَ بوفاةِ أبيه
البطلِ المِغْوَارِ إبراهيمَ باشا، فاضطرَّ لإدارةِ مزارِعِهِ وضياعِهِ الواسعةِ
التي ورثَهَا عن أبيه بنفسه، ثم فوجئَ بوفاةِ جَدِّهِ العظيمِ
محمدٍ عليّ باشا فنال منه الحزنُ كلَّ مَنالٍ، ثم سافر إلى الآسِتَانَةِ

وأقام بها ، وقلدته الدولة العلية منصباً عالياً ، حتى إذا بلغه خبر وفاة ابن عمه عباس الأول وإلى مصر وتولية عمه محمد سعيد باشا عاد من الآستانة ، وكان لعمه خير معين ، وتولى كثيراً من المناصب الإدارية والعسكرية فأظهر فيها براعة نادرة ، واكتسب خبرة عظيمة ، ودارية كبيرة ، وعرف علل مصر وأدواءها ، ونمى في نفسه حبه لإصلاحها ، حتى إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن تبرز فيها شمس المدنية ، ويسطع في سماءها نجم الحضارة ، بعث فيها هذا الملاك الطاهر ، فجلس على أريكته في السابع عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٣ بعد وفاة عمه المرحوم محمد سعيد باشا . قبض على زمامها وهو ذلك الحازم الذي خرّجته الحوادث ، وحنّكته التجارب ، وعلمته المناصب ، ولقد كان له من شدة ذكائه ، وصدق نظره ، وسعة اطلاعه ، وجرّده على محاكاة جده الأكبر خير معين في كل ما قام به من الإصلاح في البلاد ، وكان كلما ذكر أنه ابن إبراهيم باشا بطل الأبطال وقائد الجيوش في القارات الثلاث ، وأنه حفيد الغازي الأعظم محمد علي باشا ذي التاريخ العظيم ، والصيت الذائع ، والهيبة العظيمة في نفوس ملوك الدنيا ، اتّقد في نفسه حب العظمة ،

والقيام بمعظائم الأمور ، وبهذه النزعة الشريفة ، سار بمصر في طريق الحضارة شوطاً بعيداً ، ومدتها تمديننا جعل أبنائها وذرياتهم لا ينسون فضله ، ولا ينكرون جميله ، ما بقيت مصر ، على أن ما قام به من الإصلاح فيها طفرة ، اضطره إلى مد يد الاقتراض من الدول ، حتى ناءت البلاد بحمل الديون في آخر أيامه .

(٤٢)

سكة الحديد والبرق والبريد

قبل أن أتحدث إليك في تاريخ سكة الحديد المصرية، أوجأ
إلى الله سبحانه وتعالى وأسأله أن يجزى مخترع هذه القطر عن
الإنسانية خيراً، فإنه أراح العباد، ووصل بين البلاد، وقرب
البعيد، وسهل كل سبيل، أما سكة الحديد المصرية، فإن العهد
في إنشائها يرجع إلى ثالث ملوك هذه الأسرة الأمير عباس باشا
الأول الذي فكر في إنشاء أول خط حديدي في مصر بل في
الأمم الشرقية جميعاً، بين القاهرة والاسكندرية، ولكنه لم يتم
إلا في عهد خلفه المرحوم محمد سعيد باشا، الذي عني بعد بعض
الخطوط الحديدية، والأسلاك البرقية، بين بعض العواصم
والحواضر، فلما جاء المصلح العظيم. المغفور له إسماعيل باشا،
وكان قد كتب على نفسه تمدين مصر وتحضيرها، مد الخطوط
الحديدية في جميع أرجاء الوادي، وجلب القاطرات والمجالات
والقضبان من أوربة، وأنشأ المعامل الخشبية والحديدية في

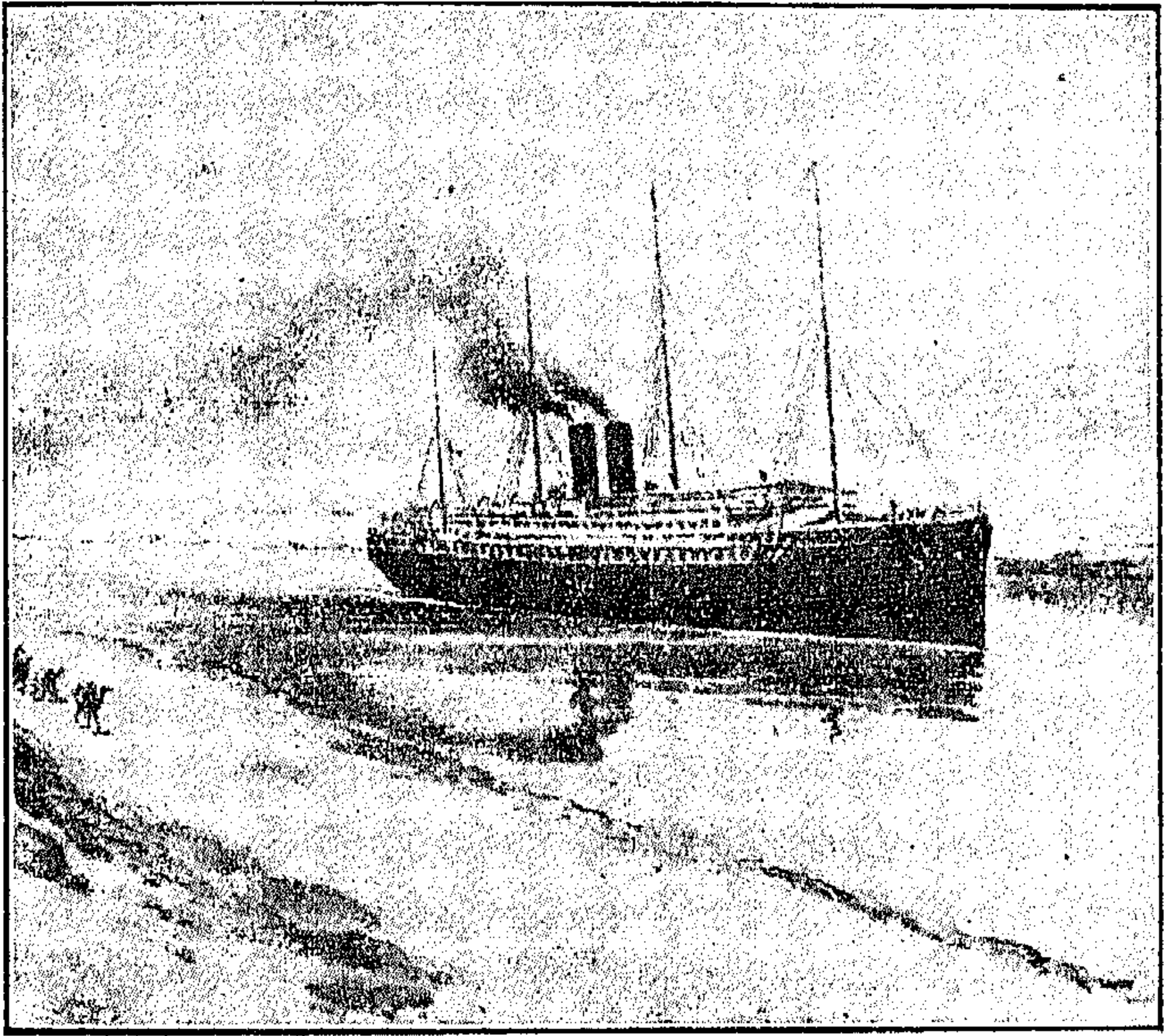
القاهرة ، وحشَرَ فيها الصُّنَاعَ ليتعلموا كلَّ ما يتعلقُ بسكَّةِ الحديدِ
ومدَّ في كلِّ بلادِ القطرِ الأسلاكَ البرقيةَ ، وفتحَ المكاتبَ البريديةَ
وأَنشأَ كثيراً من الطرقِ الزراعيةِ ، وهكذا انتشرت طُرُقُ
المواصلاتِ في جسمِ البلادِ ، وسَهِّلَ نَقْلُ المتاجرِ ، وتعارَفَ
الناسُ وتآلفُوا ، وسَرَّتْ في مِصرَ رُوحُ نشاطِ جديدةٍ ولا تزالُ
هذه السككُ تنتشرُ في المدنِ والقرى ، وتتشعَّبُ في الديارِ وتمتدُّ
في أطرافِ البلادِ ، وتَدِرُّ على يَتِّ المالِ الخيرِ العميمِ ، والربحِ
الجسيمِ ، ولقد ساعدتْ بعضُ الشركاتِ الحكومةَ المصريةَ في
إِشاءِ كثيرٍ من الخطوطِ الحديديةِ في بعضِ جهاتِ القطرِ ، فعادَ
ذلكَ على السكانِ بالراحةِ والسعادةِ ، وعلى أربابِ الشركاتِ بالأرباحِ
العظيمةِ ، وتُعَدُّ الآنَ طُرُقُ مواصلاتِ القطرِ المصريِّ كافيةً
لترقيةِ تجارتِهِ ، ولنقلِ سكانِهِ وأمتعتِهِم من مكانٍ إلى مكانٍ ، وهى
تسيرُ بينَ المدائنِ في مواعيدَ ثابتةٍ ونظامٍ تامٍّ ، وقد تعلمَ من
المصريينَ شبانٌ كثيرونَ ، تولَّى بعضهم إدارَتَها ، والبعضُ
التفتيشَ عليها ، ومنهم من يمدُّ الخطوطَ ويُصلِحُ ما فسَدَ منها ،
ومنهم من يصنعُ عجالاتِها ومقاعدَها ، وعلى الجملةِ يتولَّى أمرَها

مصريون أكفاء ، وتُعنى حكومةُ جلالةِ ملكنا المعظم
أحمد فؤاد الأول بإعداد العاملين المُجَرَّين ، فتبعتُ بهم إلى معاملِ
أورُبَّة ومصانعِها ، فزادون فيها علمًا وعمَلًا ، ثم يؤلَّونَ
المناصبَ العظيمةَ في إدارةِ سكةِ الحديدِ ، بعد أن كان يُستعانُ
في إدارتها بكثيرٍ من الأورُبيِّينَ ، جعلَ اللهُ أيامَ ملكنا أيامَ
رَخاء وسعادةٍ ، ومدَّ لنا والبلادُ في عهده السعيدِ ، وعَصْرِهِ الزاهرِ .

(٤٣)

قناة السويس

حاولَ فراعنةُ مصرَ وَصَلَ البحرَ الأبيض المتوسطَ بالبحرِ
الأحمرِ فلم يَفْلِحُوا ، وزاوَلَ ذلك البطالسةُ فلم ينجحوا ، وتناوله



قناة السويس

القياصرةُ فلم يُوفِّقُوا ، والكلُّ لا يبغيون إلاَّ اتصالَ العالمِ الشرقيِّ
بالعالمِ الغربيِّ ، وتقريبَ البعيدِ وتيسيرَ العسيرِ ، حتى جلسَ على

أريكة مصر الأمير محمد سعيد باشا الذي كانت بينه وبين المهندس
الفرنساوي الكبير دي لسبس صداقة مؤثقة العرا . فقد كان
هذا المهندس أستاذاً ورفيقاً لسعيد في أيام نشأته في عهد والده
القائد العظيم . وكان الفرنسيون منذ احتلالهم لمصر مولعين
بحفر القناة ، التي كان قد عزم على انشاؤها نابليون بونابرت ، وعهد
إلى طائفة من مهندسي حملته في بحث مشروعها ، ودرسه ،
وتدوين نتيجة هذا البحث في كتاب . ولكن الفرنسيين أكرهوا
على التخلي عن مصر كما علمت . وكان دي لسبس قد قرأ الكتاب
الذي ألفتة اللجنة الفرنسية بشأن إنشاء تلك القناة . فامتلاً قلبه
رغبة في إنفاذ هذا العمل الخطير . وما زال يمني نفسه بذلك . حتى
ولي الأمر صديقه سعيد باشا . فزین له إنشاء هذه القناة . وأظهر
له أن هذا العمل سيكون خطيراً ، كثير المنافع ، جليل الفوائد
في ربط العالم الشرقي بالعالم الغربي وفي إحداث التآلف والتعارف
بين الشعوب ، وأنه سيعود على مصر بالخير العميم . وما زال به
يغريه ، ويتخذ صداقتهما المتينة وسيلة لنجاح مبعيه حتى رضى
بتحقيق ما عجز عن تحقيقه الفراغة . والبطالة ، والقياصرة .

وعهد إلى هذا المهندس بإنقاذ هذا المشروع على نفقة شركة دولية
ظفرت من المرحوم سعيد بعهود ناءت بها مصر وتعرضت لاستقلالها
وحريتها لخطر عظيم ، لولا أن تدارك الله الكنانة قبل أن يتم
إنشاء تلك القناة ، بمُخَيِّ مجد مصر المرحوم إسماعيل باشا ، فقد
هاله ما رأى من المظالم التي تهدد استقلال بلاده ، وتنصب
على رؤوس العمال المصريين ، الذين أخذوا قوة واقتداراً وأرغموا
على حفر تلك القناة ، وغضب لبلاده غضبة مضرية ، كانت
نتيجتها إلغاء كثير من العهود القاسية ، التي تعهد بها سلفه . ثم
والت الشركة عملها ، حتى وصلت بين البحرين ، وربطت بين
العالمين ، وفي سنة ١٨٦٩ وفي عهد المغفور له إسماعيل باشا ،
احتفل بافتتاح هذه القناة احتفالاً لم تشهد الأرض مثله منذ
خلقت ، حضره ملوك الدنيا ، وعواهلها ، وعلمائها ، ومفكروها
وإن المئذنة والقرى الشرقية ، وما حول القناة من حياة ونشاط
كل ذلك أثر من آثارها . وهامى ذى لا تزال تروح فيها السفن
وتغدو بسلام

(٤٤)

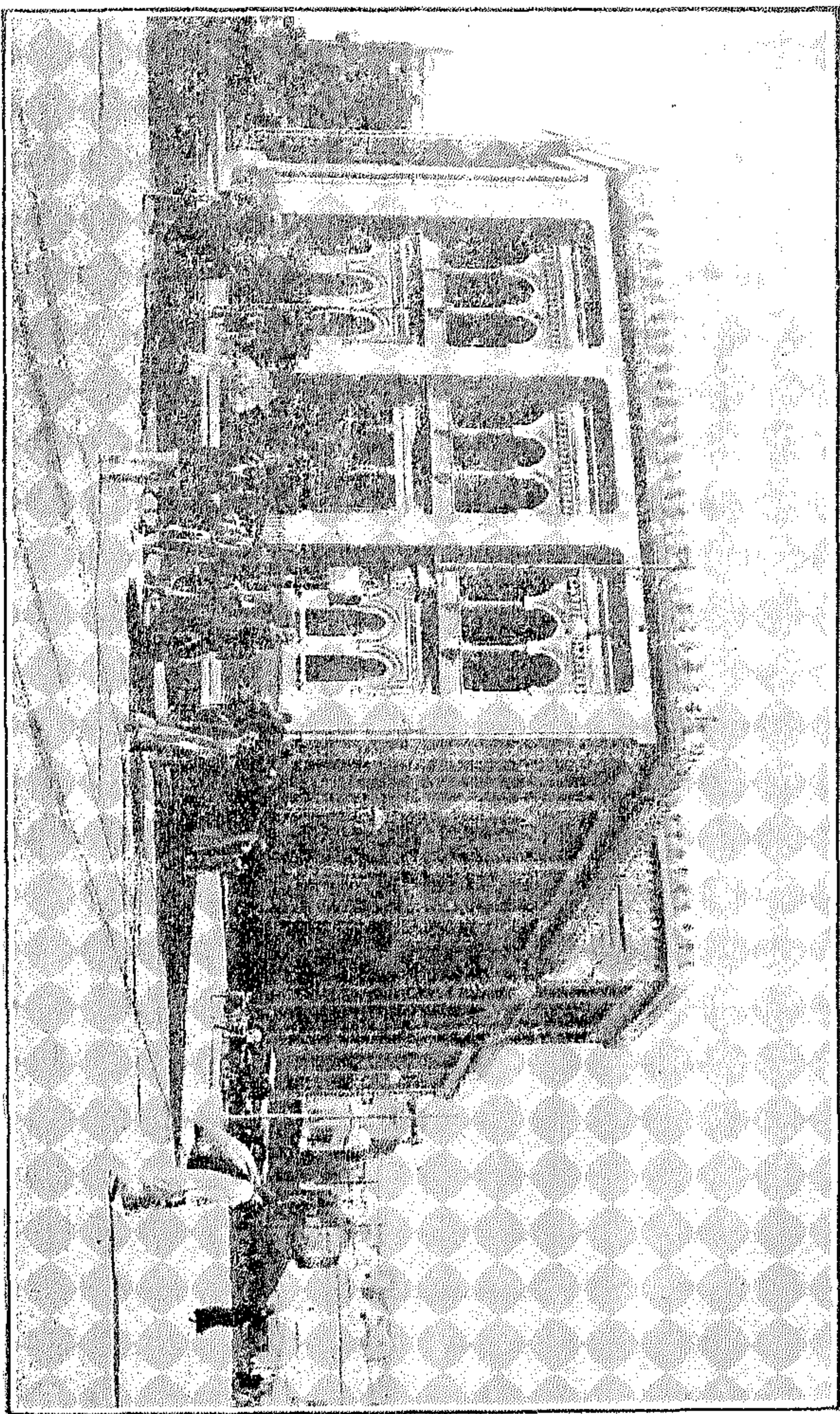
حديث النيل

خلقني الله يوم خلق الجبال والسموات والارضين ، ومنحني حياة سعيدة وعيشاً رغيداً آلاف السنين ، تهطل الأمطار في المناطق الاستوائية ، وعلى الجبال الجبسية ، ثم تنساب تلك المياه الهاطلة في مجاري عديدة ، حتى تنصب في مجراي ، فأحملها نحو الشمال ، وأسير في الوادي ، مختللاً بين حقوله ورواياه ، اختيال الملك الأعظم ، بين جُنْدِهِ وحاشيته ، حتى ألقى بمائي في البحر الأبيض المتوسط ، تعنو لعظمتي الوجوه ، وتذل لعزتي الرقاب ، ليس لكائن من كان سلطان على ، ولقد مر بي عصر من العصور اتخذني فيه سكان وادي معبوداً ، يقدمون بين يدي القرايين ، إذا غضبت عليهم انخفض مائي حتى لا يرتفع إلى المزارع ، فيلبسوا الحداد ، وينادون بالويل والثبور ، ويحسبون هبوط مائي لجناية جنوهم ، فيستغفرونني ويتوبون إلى توبة نصوحاً ، وإذا رصيت فاض مائي ، وسال على جانبي الوادي ، وتلقاني السكان بالطبول

والمزامير ، وقد زَفُّوا عروسًا من أَجَلِ فَتَيَاتِ مِصرَ ، وجاءوا بها
مَجْلُوءَةً بين أَتْرَابِهَا من بَنَاتِ السَّرَّاقَةِ ، وسارَ في مَوَكِبِ الزُّفَّافِ
فِرْعَوْنُ وجنودُهُ ، وَرَكِبُوا جميعًا سَفُنًا تَهَادَى في عُبابِي ، وقد
زِينَتْ بِأَعْلَامِ الفَرَجِ والسُرُورِ ، واثالت جموعُ الوادِي إلى صِفْقَيَّ
فَالرَّجَالُ عَلَى الحَفَّافِينَ يُصَفِّقُونَ ، والنساءُ يزغِرِدْنَ ، وسِرْبُ السفنِ
يَخْتَالُ في عَرْضِي اخْتِيالًا ، حتى إِذَا انتظمتِ المَوَاكِبُ ، وَجَرَى
القضاءُ لَغَايَتِهِ ، فَعَرَّتْ فَيَّ ، فَأَلْقَوْا فِيهِ العُروسَ طَيِّبَةً نَفْسُهَا
وَنَفْسُهُمْ ، وهكذا عِشْتُ حُرًّا طَلِيقًا ، أَمْنَحُ إِذَا شِئْتُ ، وَأَمْنَعُ
مَتَى شِئْتُ ، لَمْ يَنْلُ بِنَاءُ الأَهْرَامِ وَلَا الأَكَاسِرَةُ ، وَلَا ذَوَا القَرْنَيْنِ
وَلَا القِيَاصِرَةُ ، من حَرِيقِي وَعِزَّتِي ، حتى إِذَا حَكِمَ هَذَا الوادِي
مُلُوكُ هَذِهِ الأَسْرَةِ العَلَوِيَّةِ ، قَيَّدُوا حَرِيقِي وَسَلَبُوا اسْتِقْلَالِي ،
وَبَنَوْا في مَجْرَايَ السَّدُودِ الحَدِيدِيَّةِ ، ذَاتَ الأَبْوَابِ المَتَحَرِّكَةِ ،
فَاعْتَرَضَتْ مَائِي ، وجعلته يَسِيرُ بِإِرَادَتِهِمْ لَا بِإِرَادَتِي ، وَهَـا هُوَ ذَا
ظَهْرِي ، مُثْقَلٌ بِهَا عِنْدَ القَنَاطِرِ الخَيْرِيَّةِ وَزَفَّتِي وَأَسَيُوطَ وَإِسْنَا
وَأَسْوَانَ ، وَطَوَّقُوا سَطْحَ مَائِي بِالقَنَاطِرِ الحَدِيدِيَّةِ ، الَّتِي تَجْتَازُهَا
الْقُطْرُ ، وَتَمُرُّ عَلَيْهَا المَشَاةُ وَالْحَيَوَانُ والعَرَبَاتُ في جَمِيعِ نَوَاحِي.

الوادي ، وأثقلوا كاهلي بالقناطر والجسور بين القاهرة والجيزة ،
ورَمَوْنِي بالبواخر حتى ضِغْتُ بها ذَرْعًا ، وأقاموا على مساقطِ
أَمْطَارِي ومناجبي مقاييسَ لمعرفة زيادتي أو نقصي ، بعد أن كان
ذلك في ضميري سرًّا لا يُذَاعُ ، وآلموا أحشائي بتلك الترع التي
احتفروها ، وأقاموا العقبات في وجهي حتى يَجْرَى مائِي فيها ،
فَيَقِلَّ خَطَرِي وأَمْضِيَ إلى البحر ذليلاً ، أَتَحَامِلُ على نفسي ،
وَأَنْدُبُ في العالمين حظي .

حَرَّرَ مَلُوكُ هذه الأُسرةِ مصرَ وأَذَلُّونِي ، وَأَغْنَوْهَا وَأَفْقَرُونِي
وَاتَّخَذُونِي أداةً لِرُقَى الزِراعةِ والتجارةِ ، وسبيلًا للغادين والرائحين
فَاللَّهُمَّ إِنْ كَانَ ذَلِكَ حُبًّا فِي سَكَانِ وَادِيٍّ ، وَرَغْبَةً فِي تَرْقِيَتِهِمْ ، فَزِدْ
فِي مُلْكِ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ ، وَامْدُدْ ظِلَّ سُلْطَانِهِمْ ، وَكُنْ لَهُمْ فِي كُلِّ
أَمْرٍ وَلِيًّا وَنَصِيرًا .



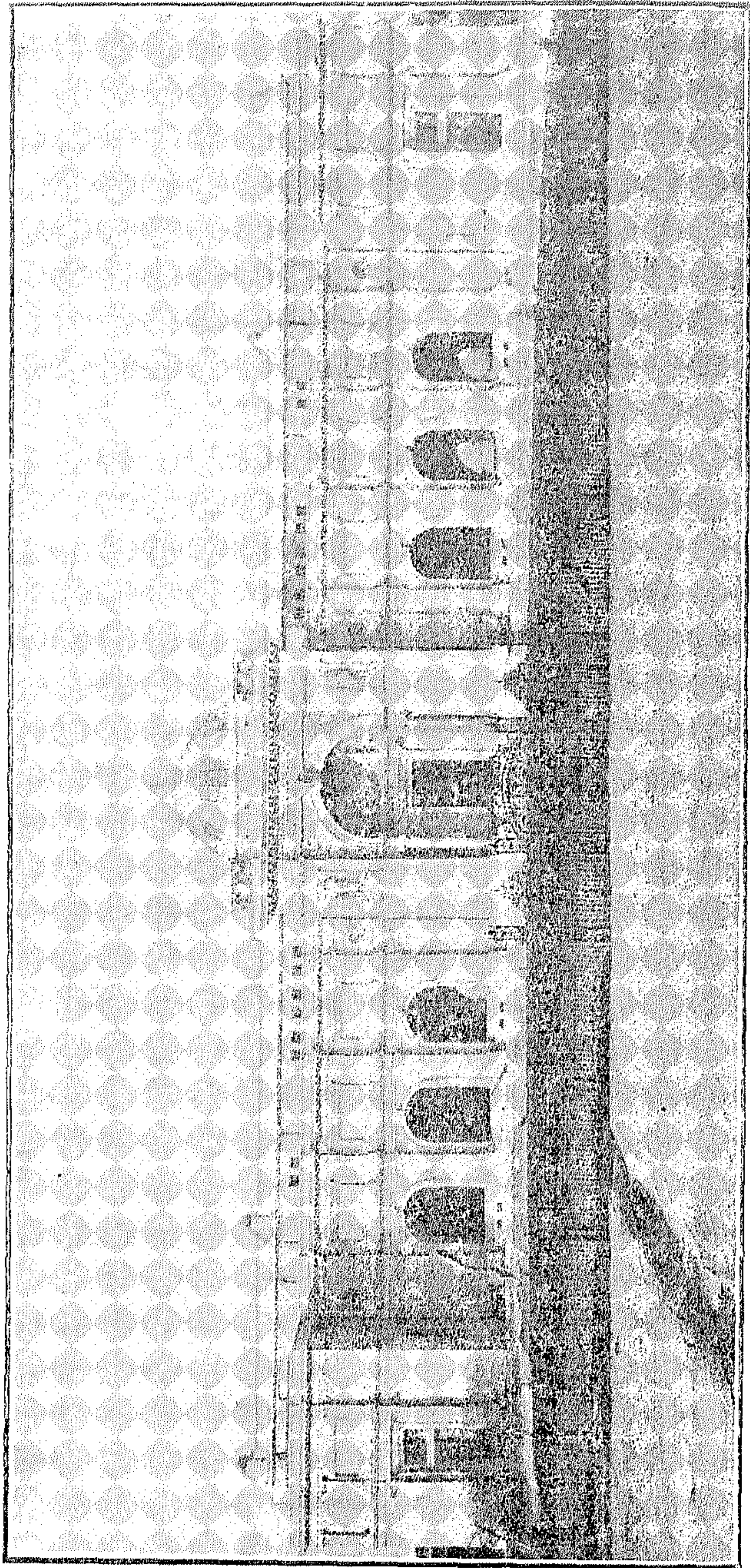
دار الكتب المصرية

(٤٥)

دار الكتب المصرية

لم يقنع إسماعيل باشا بإنشاء المدارس والمعاهد وإعداد المعلمين ونشر التعليم في الديار المصرية . بل أراد أن يُسهّل لطالبي العلم سُبُلَ تحصيله . ووسائلَ تعلّمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فأنشأ دار الكتب المصرية ونقل إليها جميع المكتبات الأزهرية والموقوفة واشترى لها من ماله آلاف الكتب القيمة . وجعل فيها المصاحف الأثرية ، والكتب الخطيّة التي يتوارثها الخلف عن السلف ، وعهد بإدارتها وتنظيمها إلى رجال ذوي خبرة ، وأمر بإعداد الفهارس والمقاعِد فيها ، وافتتح أبوابها للقارئ والكاتبين . ولم يمض غير قليل حتى صارت تضارع أكبر مكتبات العالم ، وامتلات خزائنها بنفائس المؤلفات العربية والأعجمية . وتبارى سرّاء الأمة ووجوهها في حبس الضياع الكبيرة على تلك الدار وأقبل طلاب العلم من كل فجّ يرِدُوا هذا المنهل العظيم . وما زالت هذه الدار تنمي وتزيد ، وصيحتها يذيع وينتشر ، حتى ملك مصر نصير العلم والعلماء جلالةً مليكنا أحمد فؤاد الأول فأخذ

يَدِّهَا ، ورفع شأنها وعرف لها خطرَها في ترقية مداركِ الأُمّةِ ،
وتيسيرِ سبيلِ العلمِ لمن يشاءون النبوغَ : وها هي ذى في عصره
الزاهر بالعلوم والمعارف ، تُخْرِجُ للناسِ كلَّ حينٍ كتاباً من أنفُسِ
ما أَلَفَ العلماءُ في الأيامِ الخاليةِ ، على أنه قد أنشئت في كثير من
المُدنِ المصريةِ في عهده السعيدِ دُورٌ للكتبِ ، قام بإنشائها
والإتفاق عليها المجالسُ البلديةُ ، وأعانها أولُو الخيرِ وذوو البرِّ من
أبناء الأُمّةِ ، إرضاءً لله تعالى وللمليكهم الذى يَدِينُ بإحياء العلوم
ونشرِها . وإذا أنت دخلت دارَ الكتبِ المصريةِ وطُقت بحجراتها
وخزائنها ، ومقاعدِها ، ومعارضِها ، ومكاتبِها ، وأبهائِها ، وقمّاطِها
ورأيتَ ما فيها من كتبٍ قيمةٍ . ومصاحفَ ذهبيةٍ ، وتقودُ أثريةٍ
وآثارَ تاريخيةٍ . وقد أقبل رُؤادُ العلمِ واطمأنوا في المقاعدِ وأخذوا
يقرءون ما يشاءون في هدوءٍ وسكونٍ لهالكِ عَظَمَةُ هذا المنظرِ
وبهركِ جَلالِ ذلكَ المشهدِ ، وأيقنتُ أنها معينٌ للعلمِ لا ينضبُ ،
ومدَدٌ لطلابه لا ينفدُ ، وأن منشئها وحارسِها ، ورافعى شأنِها ،
جديرون بأن يجلسوا على عروشِ قلوبنا ، ويستأثروا منها بأخصبِ
مكانٍ للحبِ والتمجيدِ .



دار الآثار المصرية

(٤٦)

دَارُ الْآثَارِ الْمَصْرِِيَّةِ

دُورُ الْآثَارِ فِي الْمَمَالِكِ عَنَّاوِينُ فَخْرِهَا ، وَدَوَاوِينُ مَجْدِهَا ،
وَمَعِينُ سُودْدِهَا ، وَمَنْبَعُ عِزِّهَا ، وَهِيَ صَحَائِفُ التَّارِيخِ
الْخَالِدِ ، وَكُتُبُ الذِّكْرِ الْقَدِيمِ ، وَهِيَ دَلِيلُ حَسَبِ الْأُمَّةِ ،
وَبُرْهَانُ شَرَفِهَا ، وَهِيَ ثَرَاثُ الْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ، وَوَصِيَّةُ السَّالِفِينَ
إِلَى الْآتِينَ ، وَأَيُّ أُمَّةٍ مِنْ أُمَمِ الْأَرْضِ خَلَفَ لَهَا الْأَقْدَمُونَ
مَا خَلَفَ آبَاؤُنَا الْأُولُونَ ؟ وَأَيُّ شَعْبٍ مِنْ شُعُوبِ الْعَالَمِ يَمُتُ
إِلَى أَصْلِ شَرِيفٍ وَمَجْدٍ تَلِيدٍ ، وَمَدْنِيَّةٍ قَدِيمَةٍ ، كَمَا يَمُتُ الشَّعْبُ
الْمَصْرِيُّ إِلَى أَصْلِهِ وَمَجْدِهِ وَمَدْنِيَّتِهِ ؟ أَلَمْ تَرَ إِلَى أَهْرَامِهِ قَدْ نَاطَحَتْ
السَّحَابَ فِي سَمَائِهِ ، وَفَابَخَرَتْ الْجِبَالَ فِي عَظَمَتِهَا ، وَهِيَ لَا تَزَالُ
سِرًّا مَكْتُومًا فِي ضَمِيرِ الْمَاضِي ؟ وَإِلَى مَقَابِرِ مُلُوكِهِ ، وَأَجْدَاثِ عَظَمَائِهِ .
وَقَدْ حَالَتْ بَيْنَ أَجْسَامِهِمْ وَبَيْنَ الْبَلَى آلَافُ السَّنِينَ ؟ وَإِلَى مَعَابِدِهِمْ
وَقُصُورِهِمْ . وَقَدْ بَلَى الزَّمَانُ وَلَمْ تَبَلْ ؟ وَإِلَى كِتَابَاتِهِمْ وَتَقُوشِهِمْ
وَأَثَاثِ مَنْزِلِهِمْ وَقَدْ اسْتَعَصَتْ عَلَى حَوَادِثِ الْأَيَّامِ ، وَتَقَلَّبَتْ

الدهور . أليس كل ذلك من مفاخر آبائنا وماثر أسلافنا ؟ أليس يدلُّ على أن المدنية والعرفان نَمِيَا في ديارنا وآتِيَا أَكْثَمًا كُلَّ حِينٍ قبل أن يَزُرَّعَا في أرض أرقى الأمم حضارةً وأعظمها مدنيةً الآنَ أَيْجَمَلُ بنا أن نُهْمِلَ هذه الآثارَ وَنَدَّعِهَا نَهْبًا للعابثين ، وَغَرَضًا لصروف الليالي وتقلباتِ الهواءِ ؟ إِنْ شِئْنَا أَنْ نَحْذُوَ حَذْوَ آبَائِنَا فَقَدْ وَجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَلَمَّسَ مَدَنِيَّتَهُمْ وَعُلُومَهُمْ فِي آثَارِهِمُ الْبَاقِيَةِ ، وَإِنْ رُمْنَا أَنْ نَقْرَأَ تَارِيخَ أُمَّتِنَا الْحَيَّةِ حَقًّا عَلَيْنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى صَمَائِفِهِ الْخَالِدَةِ وَرُمُوزِهِ الْقَدِيمَةِ . وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَحْتَفِظَ بِشَرَفِ الْآبَاءِ وَمَجْدِ الْأَقْدَمِينَ . فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ تُنْشِئَ الدُّورَ الْعَظِيمَةَ وَنُشِيدَ الْقُصُورَ الْفَخْمَةَ ، وَنَنْقُلَ إِلَيْهَا فِي خُشُوعٍ وَخُضُوعٍ ، رُفَاتَ الْمُلُوكِ وَمَا أَعْدَوْهُ فِي قُبُورِهِمْ مِنَ الْأَثَاثِ وَالرِّيَاشِ لِيَوْمِ الْمَعَادِ . وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَسْتَعِيدَ مَجْدَنَا ، وَيَنْسِجَ حَاضِرُنَا عَلَى مَنَوَالِ غَابِرِنَا ، وَنَشْعُرَ بِعَظَمَةِ مَدَنِيَّتِنَا ، وَجَلَالِ مُلْكِيَّتِهَا . عَرَضْنَا تِلْكَ الْآثَارَ وَالْمَفَاخِرَ ، وَقَدْ نُسِّقَتْ أَوَّلًا تَنْسِيقٍ ، فِي مَعَارِضِ الْحَفَظِ وَالصِّيَانَةِ ، وَفَتَحْنَا أَبْوَابَ دُورِهَا عَلَى مِصَارِعِهَا ، وَدَعَوْنَا الْأَبْنَاءَ لِلْمَشُورِ بَيْنَ يَدَيْهَا ، خَاشِعِينَ خَاضِعِينَ ، وَسَأَلْنَاهُمْ أَنْ يَمْلِئُوا قُلُوبَهُمْ غَيْرَةً عَلَى مَجْدِ الْآبَاءِ

ونخر الأقدمين . تُرى هل قننا في أى عصرٍ بما يجبُ لمن شادوا
عِزَّنَا القديمَ ، وبنَوْا لنا تَجْدًا لا يُدَانِي وعِزًّا لا يرامُ ؟
ناب عن مصرَ وملوكِها منذُ خَلَفَ الأقدمون آثارَهُم ساكنُ
الجَنَانِ اسماعيلُ باشا . فعرف للأقدمين فضلَهُم ، وللا آثارَ خطرَها
فأنشأ دَارَها ، وعرضها للناسِ في أَجَلِي ، ظاهرِ العِظَمِ والجلالِ ،
وعَهْدَ بها إلى وارثِ مُلِكِهِ ، جَلالَةِ مولانا أحمد فؤاد الأول ،
فأولاها عنايةً كَبْرَى ، وما قبرُ توت عنخ آمون وآثارُهُ واهتمامُ
جلالته به يبعيدُ .

(٤٧)

مَعْرِضُ الْحَيَوَانِ بِالْجِيزَةِ

إِلَى الشَّاطِئِ، الْغَرْبِيِّ مِنْ نَهْرِ النَّيْلِ السَّعِيدِ، وَتُجَاهَ مَدِينَةِ
الْقَاهِرَةِ، وَفِي أَخْصَبِ بَقْعَةٍ مِنْ بَقَاعِ مِصْرَ أَنْشِئْتُ حَقِيقَةَ
الْحَيَوَانِ، إِذَا رَأَيْتَهَا هَالَكَ مَنْظَرُهَا، وَأَعْظَمَكَ اتِّسَاعُهَا وَإِذَا
دَخَلْتَهَا وَطُفَّتَ بِأَرْجَائِهَا تَوَلَّاكَ الْعَجَبُ، وَأَخَذَتْكَ الدَّهْشَةُ،
وَوَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيِ كُلِّ مَنْظَرٍ مِنْ مَنَازِلِهَا، وَأَمَامَ كُلِّ مَرَأَى
مِنْ مَرَاتِبِهَا، شَاخِصَ الْبَصَرِ، سَاكِنِ الْجَسْمِ، ذَاهِبَ الْفِكْرِ
لَا تُغْنِي طَرْفًا، وَلَا تُبْدِي حَرَاكًا، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَمْرٍ وَقَفَ
بَيْنَ يَدَيِ الْعِظَمَةِ، وَمَثَلَ أَمَامِ الْجَلَالِ، إِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ
أَشْجَارًا بَاسِقَةً، وَنُجُومًا مُخَضَّرَةً، وَأَسُودًا وَظِلًّا، وَبَحَارًا وَجِبَالًا
وَسَهْلًا وَخَزْنًا، وَتَرَابًا أَغْبَرَ، وَرَمْلًا أَصْفَرَ، وَظِلًّا ظَلِيلًا، وَقَيْظًا
وَهَجِيرًا. وَإِذَا سَمِعْتَ ثُمَّ سَمِعْتَ زَيْرًا وَهَدِيدًا، وَنَهيقًا وَصَهِيلًا،
وَمُؤَاةً وَعُؤَاةً، وَنُبَاحًا وَخُؤَارًا، وَحَفِيفًا وَتَغْرِيدًا، وَنَعِيرًا وَخَرِيرًا
يُحِيطُ بِهَا سُورٌ عَظِيمٌ، كَسَتْهُ الْأَشْجَارُ الْمَتَسَلِّقَةُ حُلَّةً مُنْدُسِيَّةً،

مَوْشَاةً بِالْأَزْهَارِ الْبِنْفُسَجِيَّةِ . وَقَدْ قُسِّمَتْ تَقْسِيمًا هَنْدَسِيًّا يَأْخُذُ
بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ وَغُرَسَتْ فِيهَا الْخَمَائِلُ وَالْغَابَاتُ، مِنْ جَمِيعِ الْأَشْجَارِ
وَالنَّبَاتِ، وَرُصِفَتْ فِيهَا الطَّرِيقُ وَالْمَعَاشِي، وَجَعَلَتْ فِيهَا الْأَرَائِكُ
وَالْمَقَاعِدُ، وَالْمَجَالِسُ وَالْمَخَابِيثُ، وَأُقِيمَتْ فِيهَا عُرْنُ الْأَسْوَدِ وَالنَّمُورِ،
وَكُنُسُ الظُّبَاءِ، وَزُرُوبُ النِّعَامِ وَالزَّرَفِيِّ، وَأَقْفَاصُ الطَّيُورِ،
وَمَعَاظِنُ الْجَمَالِ وَالْأَفْيَالِ، وَأَجْحَارُ الْأَفَاعِي وَالْهُوَامِ وَمَسَابِحُ
السَّمَكِ، وَمَغَاطِسُ الطَّيُورِ الْمَائِيَّةِ، وَجَلِبَتْ إِلَيْهَا كُلُّ هَذِهِ
الْأَنْوَاعِ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَأُسْكَنْتْ فِي مَسَاكِينِهَا، وَوُكِّلَ بِحِرَاسَتِهَا
وَتَغْدِيَتِهَا، وَتَنْظِيفِ بَيْوتِهَا، رِجَالٌ لَهُمْ عِلْمٌ بِطَبَاعِ الْحَيَوَانِ وَعَادَاتِهِ،
وَمَنْ شَاءَ أَنْ يُخَصِّيَ أَنْوَاعَ حَيَوَانِهَا، لَمْ يَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، فَقَدْ
جِيءَ بِهَا مِنْ جَمِيعِ مَنَاطِقِ الْأَرْضِ، وَمَمَالِكِ الدُّنْيَا، وَاتَّخَذَتْ
الْوَسَائِلُ الصَّحِيَّةُ لِحَايَتِهَا مِنَ التَّأَثُّرِ بِجَوِّ يَخَالِفُ جَوَّ بِلَادِهَا،
يَدْخُلُهَا رُؤَادُ الرَّاحَةِ، وَطُلَّابُ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِ الْحَيَوَانِ، فَتَرَاهُمْ فِيهَا
غَادِينَ رَائِحِينَ، يَتَنَسَّمُونَ الْمُهْوَاءَ الْعَلِيلَ، فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْأَصِيلِ،
وَإِذَا قَلَّتْ مِنْ أَنْشَاءِ الدَّارِ، وَغَرَسَ الْأَشْجَارَ، وَأَقَامَ الْأَسْوَارَ،
وَجَمَعَ بَيْنَ النَّقِيزِينَ، وَأَلْفَ بَيْنَ الضُّدِّينَ، قِيلَ هِيَ مَعْنَى مَنْ

مغاني إسماعيل ، ومسرح من مسارح أنسيه . وأثر من آثاره
الخالدة ، غني به حيناً ، ثم جادت به نفسه ، ليكون معرضاً عاماً
للحيوان في عاصمة الديار ، لا يقل عن معارض العواصم الأوربية
خطراً وجمالاً ، أسكنه الله فسيح جناته ، فكم له على الحضارة
والمدينة والعلم في مصر من أيادي يضاء .

(٤٨)

مَدَنِيَّةُ إِسْمَاعِيلَ بِاشَا

قَضَى إِسْمَاعِيلُ بِاشَا زَهْرَةَ حَيَاتِهِ ، وَعُنُقُوانَ شَبَابِهِ ، فِي رُبُوعِ
أُورُشَلِيمَ ، فَعَشِقَ مَا فِيهَا مِنْ مَدَنِيَّةٍ وَعِلْمٍ ، وَأَسْبَابِ رَفَاهَةٍ وَسَعَادَةٍ ،
فَلَمَّا وَلَّى أَمْرَ مِصْرَ ، خَطَرَ بِيَالَهُ أَنْ يَجْعَلَهَا بُقْعَةً أُورُشَلِيمَةَ عِلْمًا
وَمَدَنِيَّةً وَحَضَارَةً ، وَلَكِنْ كَثِيرًا مَا كَانَ يَقِفُ جَهْلُ الْمِصْرِيِّينَ
وَجُودُهُمْ فِي طَرِيقِهِ ، وَيَحُولُ دُونَ إِنْفَاقِ كَثِيرٍ مِنْ رَغَائِبِهِ الشَّرِيفَةِ ،
بَدَأَ بِالرِّيِّ فَنَظَّمَهُ ، وَأَصْلَحَ الْأَرْضَيْنِ ، وَرَفَّى الزَّرَاعَةَ حَتَّى دَرَّتْ
عَلَى الْبِلَادِ خَيْرًا عَمِيمًا ، وَنَشَرَ الْمَدَارِسَ وَالْمُعَاهَدَ ، وَعَلَّمَ كَثِيرًا مِنْ
شَبَابِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَفَتَيَانِهَا ، وَنَصَّبَ مِنْهُمْ كَثِيرًا فِي الْمَنَاصِبِ
الْعَظِيمَةِ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي تَقْلِ مَخْتَرَعَاتِ الْغُرَبِيِّينَ الْحَدِيثَةِ إِلَى بِلَادِهِ ،
وَذَلِكَ كَالسَّكِّ الْحَدِيدِيَّةِ ، وَالْأَسْلَاحِ الْبَرَقِيَّةِ ، وَآلَاتِ الرِّيِّ
وَالطَّحَنِ ، وَالدَّرْسِ ، وَالْحَرْثِ ، وَالْعَصْرِ ، وَالنَّسِيجِ ، فَجَلَبَ مِنْهَا
شَيْئًا كَثِيرًا ، وَأَقَامَهُ فِي جِهَاتِ الْقَطْرِ ، لِيَنْتَفِعَ الْمِصْرِيُّونَ بِمَا
جَادَتْ بِهِ قَرَائِحُ الْغُرَبِيِّينَ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الْمَدَنِ الْكَبِيرَةِ ، كَالْقَاهِرَةِ ،

والاسكندرية، وغيرهما، وبني فيها القصور الشاهقة، والأبنية
المنيفة، والمعارض والمكتبات العامة، وأنشأ فيها الحدائق
والمتنزهات والمغاني والبيادين، واختط فيها الشوارع العظيمة،
وأضاءها بالأنوار الكهربائية، وأنشأ فيها فناطيس الماء التي تنساب
فيها المياه إلى المنازل في الأنابيب، ورغب كثيرين من سراق
مصر وأغنيائها في سكنى العواصم وتشيد المنازل العظيمة،
وسط الحدائق النضرة، فارتقى فن العمارة في عهده ارتقاء عظيماً،
وانتعشت لذلك الصناعة المصرية، ومال المصريون بعض الميل
إلى استجلاء غوامض الحضارة الجديدة، وفتح أبواب البلاد
لتجارة أوربة وتجارها وأمنهم على أموالهم وأنفسهم، فانتشر
التجار الفرنسيون والإنجليز واليونانيون وغيرهم في عواصم البلاد،
وفتحوا دوراً تجارية عظيمة، وعرضوا فيها من المصنوعات الحديثة
ما ملك الأبصار المصريين، وبهر أعينهم، فأقبلوا عليها يملئون بها
قصورهم، وكذلك أنشئت في المدن الكبرى الفنادق العظيمة،
ومشارب القهوة الكثيرة، واشترى بعض المصريين العربات
البديعة، ونشطت حركة البحث عن الآثار المصرية القديمة،

وأقبل علماء أورُبَّةَ ومؤرخوها على مصرَ ، وكتبوا عن آثارها
شيئًا كثيرًا ، وشتَّوا في فنادقها ، وهكذا جرى سيلُ المدنيةِ
الغربيةِ في مصرَ جارفًا ، وهكذا يُعدُّ عصرُ هذا المصالحِ الكبيرِ
فاتحةَ المدنيةِ الحديثةِ ، وأوَّلَ خُطوةٍ في سبيلِ التعارفِ والتعاونِ
بين مصرَ ودولِ أورُبَّةَ ، أسكن الله جنَّاتِ النعيمِ مُنشئَ جنَّاتِ
مصرَ ، وأمطر قبره الطاهرَ شأيبَ الرَّحمةِ والرَّضوانِ .



جلالة الملك المعظم احمد فؤاد الاول

(٤٩)

جلالة الملك محمد فؤاد الأول

هو صاحبُ الجلالة مولانا المعظمُ أحمد فؤاد الأول ، مَلِكُ
مِصْرَ ، ابنُ عزيزِ مِصْرَ الجليلِ ، إِسْمَاعِيلَ باشا ، ابنِ البطلِ
المِغْوَارِ إبراهيمَ باشا ابنِ نُحْيى مِصْرَ ، مُحَمَّدِ عَلِيَّ باشا ، وهو تاسعُ
المالِكينِ الأماثلِ من الأسرةِ المحمديَّةِ العلويَّةِ .

وُلِدَ جلالَةُ الملكِ في ثانی ذی الحِجَّةِ سنة ١٢٨٤ هـ ٢٦ مارس
سنة ١٨٦٨ بقصر والده بالجيزة .

ومن جمیل الاتفاقِ ، أن جلالته وُلِدَ في شهرِ الحِجِّ إلى بيتِ
اللهِ الجِرامِ ، واعتَلَى عرشَ مِصْرَ فيه ، فكانه جَلَّتْ قدرته ، أرادَ
بذلك أن يُرْشِدَ المِصريين إلى أنه كعبتهم التي إليها يَحْجُونَ ،
وَحِجَامِ الذي فيه يَحْتَمُونَ ، وإنَّ في اسمه الشريفِ ما يدلُّ على أنه
قلبُ مِصْرَ النابضُ ، وَعَلَمُهَا الخافِقُ .

لما بلغ السابعة من حياته السعيدة ، أدخله المغفورُ له والده
مدرسةَ الأَنْجَالِ الكرامِ ، فَتَلَّقَى فيها العلومَ ، ولما بلغ حفظه اللهُ

العاشرة ، صدر أمرُ والده الكريمُ بسفره إلى جنيفَ ، وأن يكونَ في معيته اثنانِ من فضلاء مصرَ ، هما (حسن جلال باشا) و (حمد الله أمين باشا) ، ليقوما بتهديبه وتعليمه .

وفي سنة ١٨٨١ رآه (أمبرْتُو الأولُ) ملكُ إيطاليا ، فسُرَّ بذكائه أيما سرورٍ ، وأشار على والده وكان صديقه ، أن يدخله مدرسة الفنون الحربية (بتورينو) ، وهي إحدى مدارس الدنيا الثلاث العليا لتعليم فن الحرب ، فخرج منها وسنه لا تزيد على عشرين سنة .

ولما رآه السلطانُ عبد الحميد ، وكان يزورُ والده بالآستانة ، أحبه لعلمه وسمو أخلاقه ، فجعله ياوره الفخرى ، ثم ملحقه العسكري بقينة ، وحياء جلالته الحافلة بجلائل الأعمال الوطنية ترشدنا إلى ما اتصفت به نفسه الكبيرة ، من الخلال الحميدة ، وسمو المدارك ، وقد وعى صدره الشريفُ تاريخ مصر الحديثة ، وراقب حوادث وادى النيل عن كُتب ، من لدُن عهد المغفور له والده حتى الآن ، فهو خيرُ من يتولى أمرها ، ويدبرُ شئونها ، وقد نالت مصرُ بفضل ذلك العلم الجيم ، وتلك الخبرة الواسعة ، ما لم تكن لتنالهُ

في عهد غيره ، فصارت مملكة مستقلة ، حرة ، موفورة الخير ،
عزيرة الجانب ، كما كانت منذ ستة آلاف سنة .

ومن خلال جلاله الملك الشريفة ، أنه يمتت الكذب والرياء ،
ويحب الإخلاص في القول والعمل ، لأنه حفظه الله ، لا يعمل
إلا رغبة في الخير ، منزها عما سواه ، شأن الملوك المصلحين في كل
زمان ، وجلالته شغف عظيم باستطلاع أخبار الأمم ، ودراسة
أسباب رقيها ، وانحطاطها ، ليكون رائده الحكمة والسداد ، فيما
يحب لأمة ويرضاه .

وفي يوم الثلاثاء ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ هـ ٩ أكتوبر
سنة ١٩١٧ م ، نودي بجلالته سلطانا على مصر ، بعد أن بلغ سن
الكمال في الملوك ، فجمع أبقاه الله إلى همة الشباب ، حكمة الشيوخ ،
وما زال بمصر منذ ولي أمرها ، يحارب الجهل فيها ، ويدرك الأذى
عنها ، ويقف كل جهوده ووقته على العمل لإنجاحها وها هي ذى
قد صارت بفضل جهاده العظيم ، وسعيه المشكور ، من أعظم أمم
الدنيا ، علما وثروة وحضارة ، عاش لمصر مليكها الأبعد ، وولي
عهده الكريم :

(٥٠)

الرَّخَاءُ

إِذَا أَنْتَ عَرَضْتَ أَمَامَ نَظَرِكِ تَارِيخَ مِصْرَ ، وَقَلَّبْتَ صَفْحَاتِهِ
صَفْحَةً صَفْحَةً ، لَمْ تَجِدْهَا فِي أَيِّ عَصْرِ مِنَ الْعُصُورِ أَرْغَدَ عَيْشًا ،
وَلَا أَرْخَى بِالْأَيَّامِ ، مِنْهَا فِي عَصْرِ مَلِكِهَا الْمَحْبُوبِ أَحْمَدَ فُؤَادِ الْأَوَّلِ ،
بَلْ لَقَدْ تَوَالَتْ عَلَيْهَا أَرْمَانُ عَضْبِهَا فِيهَا الْفَقْرُ بِنَايِهِ ، وَحَلَّتْ بِهَا
الْإِحْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فِي كَثِيرٍ مِنْ أَدْوَارِ تَارِيخِهَا ، حَتَّى إِذَا
حَمَلَ عَيْنَهُمَا هَذَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ ، وَلَّى الْفَقْرُ مِنْهَا هَارِبًا ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ
رَخَاءٌ عَامٌّ ، وَسَعَادَةٌ شَامِلَةٌ ، وَكَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى ، أَرَادَ بِذَلِكَ
أَنْ يَجْعَلَ عَصْرَهُ الْوَاحِدَ فَاتِحَةً خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ لِلْمِصْرِيِّينَ أَجْمَعِينَ ،
حَتَّى يَقُولُوا بِحَقِّهِ ، إِنْ عَصْرَهُ كَانَ عَصْرَ رَخَاءٍ ، وَيُؤْمِنُ ، وَسَعَادَةٍ ،
كَمَا كَانَ عَصْرُ أَبِيهِ الْكَرِيمِ عَصْرَ إِصْلَاحٍ ، وَتَمْدِينٍ ، وَتَجْضِيرٍ ،
وَعَصْرُ جَدِّهِ الْأَكْبَرِ عَصْرَ تَحْرِيرٍ ، وَتَنْوِيرٍ ، وَبَذْرِ لِبَنُورِ
الْإِصْلَاحِ ، نَعَمْ جَاءَ اعْتِلَاؤُهُ لِعَرْشِ مِصْرٍ فَالْأَحْسَنُ لِلْمِصْرِيِّينَ ،
فَقَدْ ارْتَفَعَتْ فِي عَهْدِهِ أَثْمَانُ الْحَاصِلَاتِ الزَّرَاعِيَةِ ارْتِفَاعًا لَمْ يُعْهَدْ

له مثيل من قبل، حتى يبيع قنطار القطن بخمسة آلاف قرش،
بعد أن كان يباع بأربعمائة، ويبيع إردب القمح بستمائة قرش
بعد أن كان يباع بمائة، وكذلك ارتفعت اثمان الأنعام، حتى
يبيع الثور بعشرة آلاف قرش، وقد كانت لا يساوي أكثر
من ألف.

وإذا أنت ذكرت أن السواد الأعظم من المصريين زُرَّاعٌ،
أدركت مبلغ ربح البلاد ورخائها في هذا العهد السعيد، على أن
الرخاء شمل جميع طبقات الأمة، فقد ربح التجار أموالاً جاوزت
العد، وفاقت الحساب، وكذلك الصناع، وارتقت رواتب
المستخدمين في دواوين الحكومة، وبيوت التجارة، والمصارف،
والشركات وغيرها، وزادت أجرة عمال المياومة زيادة مكنتهم
من أن يعيشوا عيشاً رغيداً، وامتلات خزائن وجوه الأمة
وسرّاتها ذهباً، وتسنى لهم أن يفكوا عقال ضياعهم، وقصورهم،
التي رهنوها للمصارف الأجنبية، بعد أن أثقلوا كواهلهم بالديون
الكثيرة، وهأنت ذا ترى بعينك كثيرين من أفراد امتنا، يشترون
الضياع الواسعة، ويشيدون القصور الفخمة، ويفرشونها بغالى

الرَّيَاشِ ، وترى أيضا كثيرين من ذوى المال الوفير ، يُنْشِثُونَ
يُوتًا تِجَارِيَّةً ، ومعاملَ صناعيةً ، وشركاتَ حيويةً ، ومصارفَ
ماليةً ، وترى كذلك كلَّ فردٍ من أفرادِ هذه الأمة يُنْفِقُ عن
سَعَةٍ ، وَيَبْذُلُ في تعليمِ أبنائه وبناته وتربيتهم من المال شيئا
كثيراً ، وإذا التمسْتَ لكلِّ ذلكِ عللاً وأسباباً ، لم تجدِ غيرَ
الرِّخاءِ والغِنَى اللَّذِينَ شِمِلَا المصريين جميعاً في عصرِ ملكهم المُفَدَّى ،
أحمد فؤاد الاول ، أَطَالَ اللهُ عُمرَهُ ، وأَعَزَّ مُلْكَهُ ، وجعل أيامه
أيامَ سعادةٍ وَيَمْنٍ ، وأَقَرَّ عَيْنَ أُمَّتِهِ ببقاءِ وَلِيِّ عَهْدِهِ الأميرِ فاروقٍ ،
كَأَلَاهُ اللهُ ورعاه .

(٥١)

النِّقَابَات

ظَلَّ الْعَالَمُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا يُعَانِي آلامَ أَثَرَةِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَظَلَمَ
أَرْبَابِ الْمَصَانِعِ ، وَالْمُعَامِلِ وَالْمُزَارِعِ ، وَاسْتَبْدَادِ الْحُكُومَاتِ ،
دَهْرًا طَوِيلًا ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ الْأَجِيرُ يَحْسَبُ نَفْسَهُ عَبْدًا قَنًا ،
اشْتَرَاهُ مُسْتَأْجِرُهُ بِهَذَا الْأَجْرِ الزَّهِيدِ ، الَّذِي لَا يَسُدُّ عَوْرًا ،
وَلَا يُقِيمُ أَوْدًا ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى عِتْقِهِ مِنْ رَقَّةٍ ، مَا دَامَ فَقِيرًا ،
لَا يَجِدُ مُعِينًا وَلَا نَصِيرًا ، إِلَى أَنْ هَدَاهُ اللَّهُ النَّظَرَ فِي أَمْرِهِ ، وَأَمَرَ
مَنْ يَسْتَعْمَلُهُ ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ يَكْدُ وَيَكْدَحُ ، وَيَشْقَى وَيَتَعَبُ ،
وَذَاكَ يَحْنِي الثَّمَارَ ، وَيَكْتَنِزُ الْأَمْوَالَ ، وَيَسْتَأْثِرُ بِمَا فِي الدُّنْيَا مِنْ
نَعِيمٍ ، وَكَذَلِكَ وَجَدَ أَنَّ هَذِهِ الصُّرُوحَ الشَّاهِقَةَ ، وَالْمَخْتَرَعَاتِ
الْعَظِيمَةَ ، وَالزَّرْعَ الْكَثِيرَةَ ، وَكُلَّ مَا فِي الْمَسْكُونَةِ مِنْ مَدَنِيَّةٍ
وَحَضَارَةٍ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ يَدِهِ ، فَأَخَذَ يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ قِيمَتَهَا فِي
الْوُجُودِ ، وَيَقِفُ أَمَامَ رَبِّ الْعَمَلِ مَوْقِفَ الْعَامِلِ الْمُعِينِ ،
لَا مَوْقِفَ الْأَجِيرِ الْمُسْكِينِ .

كَبُرَ عَلَى السَّيِّدِ أَنْ يَسْأَلَ خَادِمَهُ أَجْرَ مَا يَعْمَلُ ، وَأَنْ يَسْتَقِيلَ أَجْرَهُ الْقَلِيلَ ، وَيَسْتَكْثِرَ عَمَلَهُ الْكَثِيرَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِ سَوَاطِ عَذَابِهِ وَأَرْهَقَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا ، فَأَعْوَزَتِ الْعَامِلَ الْمَعُونَةَ ، فَاسْتَنْصَرَ أَخَاهُ فَرَأَى أَنْ يَنْصُرَهُ ، لِيَتَّخِذَ عِنْدَهُ يَدًا لَعَلَّهُ مُسْتَعِينٌ بِهِ إِذَا لَحِقَهُ ضَيْمٌ ، أَوْ أَلَمٌ بِهِ مَكْرُوهٌ . هَكَذَا سَرَتْ رُوحُ التَّعَاوُنِ بَيْنَ الْعَمَالِ وَالصُّنَّاعِ ، وَالْمُسْتَخْدَمِينَ . وَهَكَذَا عَرَفُوا مَعْنَى الْإِتِّحَادِ ، فَتَقَارَبَتْ مَيُولُهُمْ ، وَتَنَاسَلُوا الْأَحْقَادَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَاتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ ، وَاجْتَمَعَ كُلُّ قَبِيلٍ مِنْهُمْ . وَأَلْفُوا تَقَابَاتِ تَعَاوُنِيَّةٍ تَجْعَلُهُمْ جِسْمًا وَاحِدًا ، وَتَعَصِمُ الْأَفْرَادَ مِنْ ظُلْمِ الْحُكُومَاتِ وَغَيْبِ أَرْبَابِ الْأَعْمَالِ ، وَتُبَيِّنُ لِلْمَلِكِ مَبْلَغَ خَطَرِهِمْ فِي الْحَيَاةِ . أَلْفَتِ النِّقَابَاتُ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ ، وَارْتَفَعَ شَأْنُ الْعَامِلِ هُنَاكَ ، وَنَالَ حَقَّوَقَهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَى عَمَلِهِ يُتَقِنُهُ وَيُجَوِّدُهُ ، مُؤْمِنًا بِأَنْ مَزَايَا هَذَا الْإِتِّقَانِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِ . كَانَ ذَلِكَ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ ، فَهَلْ يَأْتُرَى سَلَكَ الْعَامِلُ الْمِصْرِيَّ سَبِيلَ أَخِيهِ الْغَرْبِيِّ ، لِيَرْفَعَ الْحَلِيفَ وَيُنْجُو مِنَ الظُّلْمِ . إِنْ عَمَالَ مِصْرَ وَطَوَّافَهَا الْمُخْتَلِفَةَ ، أَخَذُوا يُحَاكُونَ عُمَالَ الْغَرْبِ فَالْفُوا النِّقَابَاتِ . وَهَافُوا أَوْلَاءَ الْآنَ يَحْنُونُ جَنَاهَا الدَّافِي . اللَّهُمَّ

إلا طائفة الزُّرَّاعِ المصريين ، وأنتَ تعلمُ أنها السَّوَادُ الأعظمُ
من السَّكَّانِ ، وأنها لم تنلْ من العِلْمِ نصيباً يجعلُها تَقُومُ معنى
التَّعاونِ والاتِّحادِ

برَّ بها الملكُ أحمدُ فؤاد الأولُ ورأى أن يُخَلِّصَها من شرِّالكِ
الدَّائنينِ والمصارِفِ الماليَّةِ والأغنياءِ ويَهْدِيَهَا خَيْرَ الطَّرِيقِ لِمُسْتَنْبَاتِ
الأَرْضِ ، وشِراءِ البذورِ والسَّمَادِ ، وَيَبْعَ الثَّمَارِ ، وتَرْيَةِ الماشِيَةِ ،
فَأصدرَ أمرَهُ الكَرِيمَ بتأليفِ تَقَابَاتِ زراعيةٍ في جميعِ جهاتِ
القَطْرِ المِصرِيِّ ، تُكْثِرُ أَغْلالَ الزَّارِعِ المِصرِيِّ وتَمُدُّهُ بِالمالِ
يُنْفِقُهُ على زرعِ أرضِهِ وتُدَبِّرُ لَهُ أَمْرَ السَّمَادِ ، وتَتَوَلَّى جَلْبَ البذورِ
والأشجارِ . ويَبْعُ الحبوبِ والأثمارِ . وتحفظُهُ من الدَّائنينِ والتَّجَارِ
وتُلقِي على النَّاسِ دروساً في التَّعاونِ وآثارِهِ في النهوضِ بالبلادِ .
عاشَ مَلِكُنَا عَوْنًا لأمَّتِهِ ، ومُكَلِّدًا لشَعْبِهِ

(٥٢)

تعليم البنات

المرأة أليفة الرجل في السراء والضراء ، وشريكة في الرخاء والبأساء ، إن كان له عمله في الحقول والمزارع ، وميادين الحرب والسياسة ، وإدارة الشؤون العامة ، فلها أثرها في المنازل وتديرها والأولاد وتربيتهم ، والأزواج وتوفير راحتهم . ألا ترى أن الرجل يكذب ويكدر ، ويحصل رزقه ، ويجعله في يد حليته تتصرف فيه على حسب أهوائها ، فإن شاءت بذرت وجعلت بينه وبين الغنى حجاباً مستوراً . وإن شاءت قصدت ، فجعلته بعد حين مثيراً كبيراً . ألا ترى أنه يمضي لشأنه ويخلف بين يديها الأولاد ، فإن كانت تحسن تربيتهم وتهذيب نفوسهم وتثقيف عقولهم ، وتقويم أسننتهم نشئوا ملائكة أطهاراً ، وإن أسلمتهم إلى الطبيعة وفعلها والتقاير وأعمالها والخدم وجهلهم ، شبوا على أمتهم شراً ويلاً . ألا ترى أنها إذا حسنت أخلاقها كانت أمام عشيرها ملاً كاملاً رحيماً ، وإذا ساءت أخلاقها وأغوزتها

التربية كانت أمانة شيطانا رجياً . عرفت أم الغرب ذلك
فَعْنَيْتُ بالمرأة عناية بالرجل ، واهتمت بها فاهتمت بأبنائها .
وها هي ذى الآن لا تقل خطراً في الحياة عن الرجل . أما أم
الشرق فقد جهلت قدر المرأة وسلبتها كل حقوقها ، فكان ذلك
سبب تأخرها . وأصاب المرأة المصرية ما أصاب الشرقيات ، جميعاً
من الإهمال فرسفت في قيود السجن دهرًا طويلاً ، حتى من الله
عليها بمن يهيئ لها في مصر حياة سعيدة ، وعيشاً رغيداً ، تشعر
فيه بعزتها وتقطع أغلال أسرها . ذلك هو رب الإصلاح في
مصر مولانا أحمد فؤاد الأول . عرّف للمرأة خطرها في رقي الأمة
وتهذيب ناشئها وإرضاعهم لبان الأخلاق الفاضلة ، وتعويدهم
على الفضيلة ، منذ نعومة أظفارهم ، نظر جلالة إلى ما أنشأ لها
أسلافه من معاهد التربية والتعليم ، فإذا هي مدارس قليلة في
بعض المدن ، تحامل على نفسها ، ولا إقبال عليها ، ولا نصير
لها ، فعنى بها عناية الأب الرحيم ، وأجرى فيها ماء الحياة ، حتى
نشطت من عقالها ، وأقبلت الفتيات على تلقى العلم فيها ، ثم أمر
جلالته فأنشئت في جميع العواصم والقرى مدارس للبنات ، ولا

يَمْضِيْ غَيْرُ قَلِيْلٍ ، حَتَّى يَتَكَافَأُ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فِي مَصْرَ ذَكَاءٍ
وَإِدْرَاكًا ، هُنَاكَ نَأْمَنُ عَلَى أِبْنَائِنَا ، فَنَجْعَلُهُمْ بَيْنَ سَمْعِ الْمَرْأَةِ
وَبَصَرِهَا ، وَعَلَى خَزَائِنِ أَمْوَالِنَا فَنُسَلِّمُهَا مِفَاتِيحَهَا ، آمَنِينَ مَطْمَئِنِينَ
عَلَى ثِمَارِ كِدِّنَا ، أَلَا تَرَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْفَضْلَ فِي هَذِهِ النِّهْضَةِ
النِّسْوِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ ، يُؤْوِلُ إِلَى صَاحِبِ الْجَلَالَةِ ، مَلِيكِنَا الْمَحْبُوبِ ،
وَأَنَّهُ مِنْذُ تَحَمَّلَ أَمْرَنَا ، سَاهَرَ عَلَى مَا فِيهِ رُقِيَّتُنَا وَفَلَاحُنَا ؟ .

(٥٣)

الأعمال الخيرية

لكل أمة من الأمم نصيبها من الأيتام، والفقراء، والعجزة، والمرضى، والعاطلين، والجاهلين، وذوى العاهات، وهؤلاء إذا كثروا فى بلد من البلدان، كانوا خطراً عظيماً على أمن السكان وراحتهم وحياتهم، وهم يكثرُونَ إذا غلَّ الأغنياء وسرَّاة الأمة أيديهم عن العطاء، وبخلوا بالمال يُنفقونه فى أوجه البر والإحسان، ولقد كان حظ بلادنا من هؤلاء المعوزين وفيراً، وكذلك كان قسطها من الثرى عظيماً، فهل قام هؤلاء الأغنياء بما توجبُهُ عليهم المروءة والأزليحية، من إغاثة الفقراء، وإيواء العجزة، وتربية الأيتام، وتعليمهم، ومعالجة المرضى، ومعاونة العاطلين، وتعليم الجاهلين، وإجراء الأرزاق على ذوى العاهات؟ إنهم لم يقوموا بمفترض تلك الآلاء ولم يؤدوا حقَّ الله فى أموالهم، اللهم إلا قليلاً ممن يتوارثون العطف والحنان، ويتواصون بالجلود والإحسان.

رأى ذلك ملكنا، فدَّ يدهُ إلى الفقراء قبل أن يمدَّها إلى الأغنياء، وإلى المرضى قبل الأصحاء، فأنشأ المساجد للمصلين،

والملاجئ للمعجزة والمساكين ، والمشغل للأيتام والعاطلين ،
والمستشفيات للمرضى والضعفاء ، وما أُصيب قومٌ بحريقٍ أو
بغرقٍ أو بقحط فنَادَوْا يَا أَهْلَ المروة والنجدة ، إِلَّا كَانَ المليكُ
أولَ المُلبّين وخيرَ المواسين .

ضرب بذلك مثلاً عالياً لسرارة أمته وأغنيائها ، وعلمهم كيف
يكون عطفُ الغنيِّ على الفقير ، وأغرام بولوج أبواب الخير ،
وجعل عطفه ورضاه عن الأغنياء جزاءً لعطفهم وشفقتهم على
الضعفاء والمعوزين .

فمن شاء أن يُزَيِّنَ صدره بأوسمة المجد والشرف ، ويَحُلِّيَ
جبينه بشارات الرضا والقبول ، قدَّمَ بين يدي أمته عملاً صالحاً ،
وأنشأ للعلم فيها أثراً خالداً ، وما المعاهد ، والمدارس ، والمصاحف ،
والملاجئ ودور الكتب ، التي يتبارى المصريون في تشييدها ،
وحبس الضياع عليها ، إِلَّا نتيجة لعطفه الأبويِّ على شعبه الهاديِّ
وهذا هو السرُّ في اجتماع القلوب على محبته ، واتحاد الألسنة في
الدعاء له ، أن يطول عمره ويدوم ملكه ويُقهرَ عدوه ، ولولى
عهده ، أن يرحاه الله ويُنْقِيَهُ ذُخْراً للبلاد

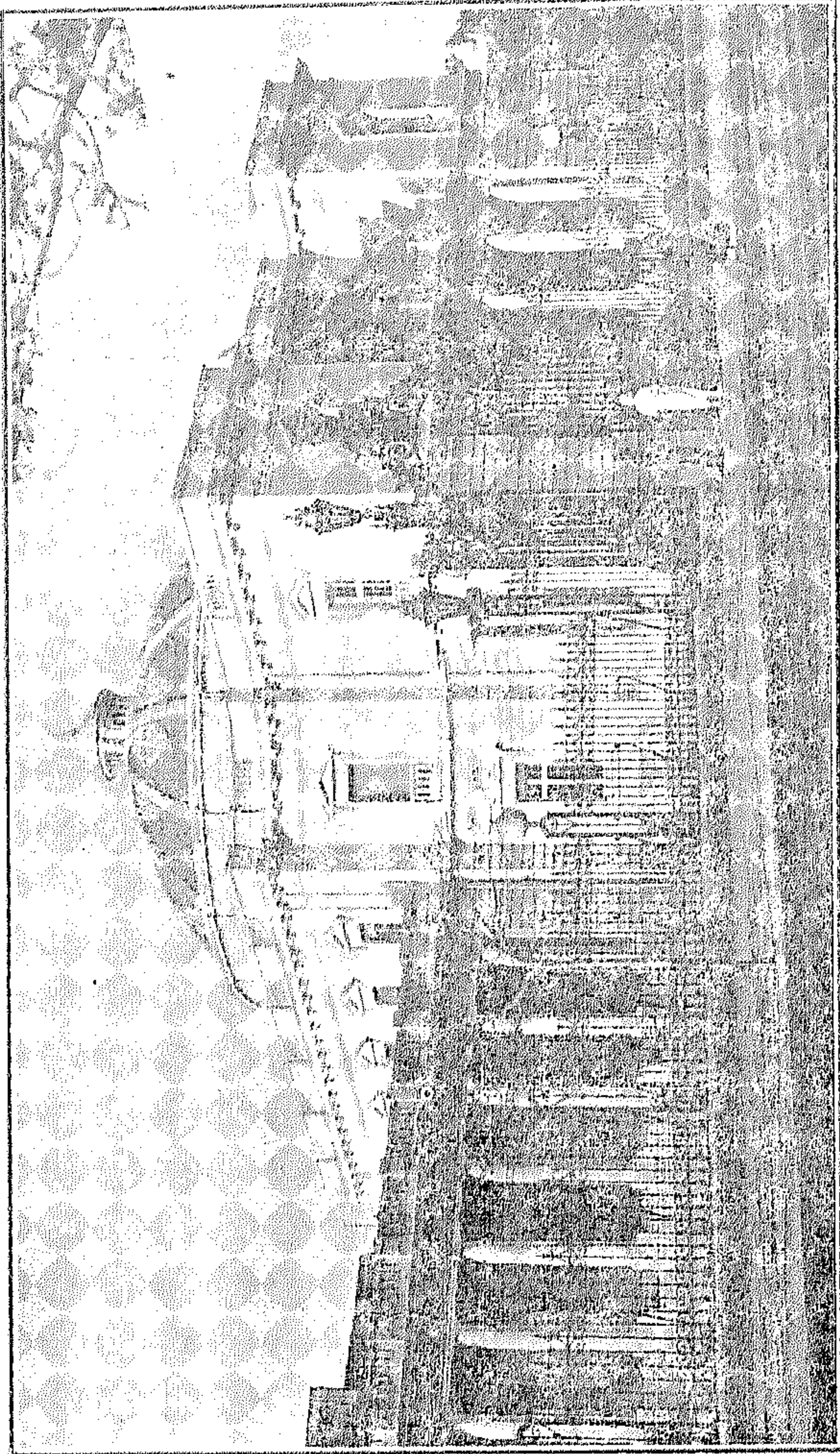
(٥٤)

استقلال مصر

كانت مصر منذ فتحها العثمانيون ولاية عثمانية ، تولى عليها الدولة العلية الولاية والياء بعد وال . ولا أظنك قد نسيت ما لاقت على أيدي هؤلاء الولاة من الظلم والاستعباد ، وما أصابها من الفقر والإئحال ، حتى أراد الله لها أن تذوق طعم الحرية . وتتفياً ظلال الاستقلال ، فمن عليها بمحررها الغازي الكبير محمد علي باشا الذي انتشلها من وهديتها وأخرجها من هويتها . وما زال يسير بها في طريق الحياة ، ويدود عن حماها ذياد الليث عن عرينه ، حتى انفرد بإدارة شئونها ، وجعل لها جيشاً وأسطولاً ، وأرغم الدولة العلية بحد السيف على أن تجعل ولاية مصر له ولسلالته الطاهرة ، يتوارثها الخلف منهم عن السلف . وللدولة في مقابل ذلك جزية سنوية ، وإشراف على بعض الشئون المصرية . وهكذا ظل حاكم مصر يُسمى والياً حتى جلس على عرشها المغفور له إسماعيل باشا وجرى بها في سبيل الرقي شوطاً جعلها

في مصافِّ الدولِ الراقيةِ ، وأرى الناسَ جميعاً أن مصرَ قد غنيتُ
برجالها وجيشها وحكومتها عن تدخلِ الأجنبيِّ في شئونها ، وأنه
قد آن للدولة أن تمنحها استقلالها ، وتغيِّرَ لقبَ حاكمها وسألمها
ذلك فرضيتُ به طيبةً نفسها ، ومنحتُ مصرَ استقلالاً داخلياً
مع بقاء سيادتها الدينية ، وجعلتُ لقبَ الحاكمِ (خديويّاً) .
وما كادت البلادُ تجني ثمارَ هذا الاستقلالِ حتى جاء خلفاءُ
إسماعيلَ باشا . واحتلتها الجنودُ الانجليزيةُ في عهدهم وأعلنت
إنجلتراُ الحمايةَ عليها سنة ١٩١٤ ولقبَ حاكمها (بالسلطان) .
فلما اعتلى عرشها جلالةُ الملكِ أحمد فؤاد الأول جرى على سنةِ
أبيه وجدِّه ، في تخليصِ مصرَ من مآزقها ، وإيقادها من أيدي
غاصبيها ، وأخذ يبدِ شعبه ، وسلكَ كلَّ سبيلٍ لإعادةِ حريتهِ
واستقلاله ، اللذين نالتهما البلادُ على يدي أبيه وجدِّه ، ثم فقدتهما
في عهد أسلافه . ظل المليكُ وساسةُ بلاده يقرعونَ الحجةَ
بالحجة . ويرمونَ الدليلَ بالدليل ، حتى غلبَ حقُّنا باطلَ المحتلِّين
وأذعنوا لإرادتنا . وألغوا حمايتهم وعاد لمصرَ استقلالها وحريتها
في يوم الأربعاء ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ . بفضل سعيِ جلالتِه المحمودِ

وجِهَادِهِ المشكور . وَلَقَّبَ نفسه (ملك مصر والسودان) .
وها هي ذى بلادُهُ العزيزة صارت دُولَةً بين الثُّلُوتِ ، لها ما
للدولِ المستقلة . وعليها ما عليهنَّ ، ورفعَ المِصرى رَأْسَهُ وشَعَرَ
بالعِزة بعد أن كان عَانِي الرَأْسِ مَهِيضَ الجَنَاحِ . عِشْتَ يَا مَلِكَ
الاستقلالِ والدُّستورِ ودارِ النِّيابةِ وعاشَ فاروقُ عزيزاً سعيداً



دار النيابة (البرلمان)

(٥٥)

الدُّستور ودائر النيابة

لكل شعب من الشعوب نوع من الحكم ارتضاه ومضى فيه ، فمن ذلك المملكة المطلقة ، التي يؤول أمرها إلى ملك يحكمها بمحض إرادته ، لا يتخذ له ظهيراً ولا مشيراً ، والمملكة المقيدة ، التي يستعين ملكها في إدارة شئونها ، وسن قوانينها ، بهيئة نيابية ينتخب أفرادها من أبناء الأمة ، والجمهورية ، وهي أن تحكم البلاد بجمهور من الأكفاء المخلصين الذين أنجبهم ، ينتخبون من بين أفرادها ، ويرأسهم واحد منهم ، يختارونه لمدة معينة ، وما إلى ذلك من أنواع الحكم الكثيرة .

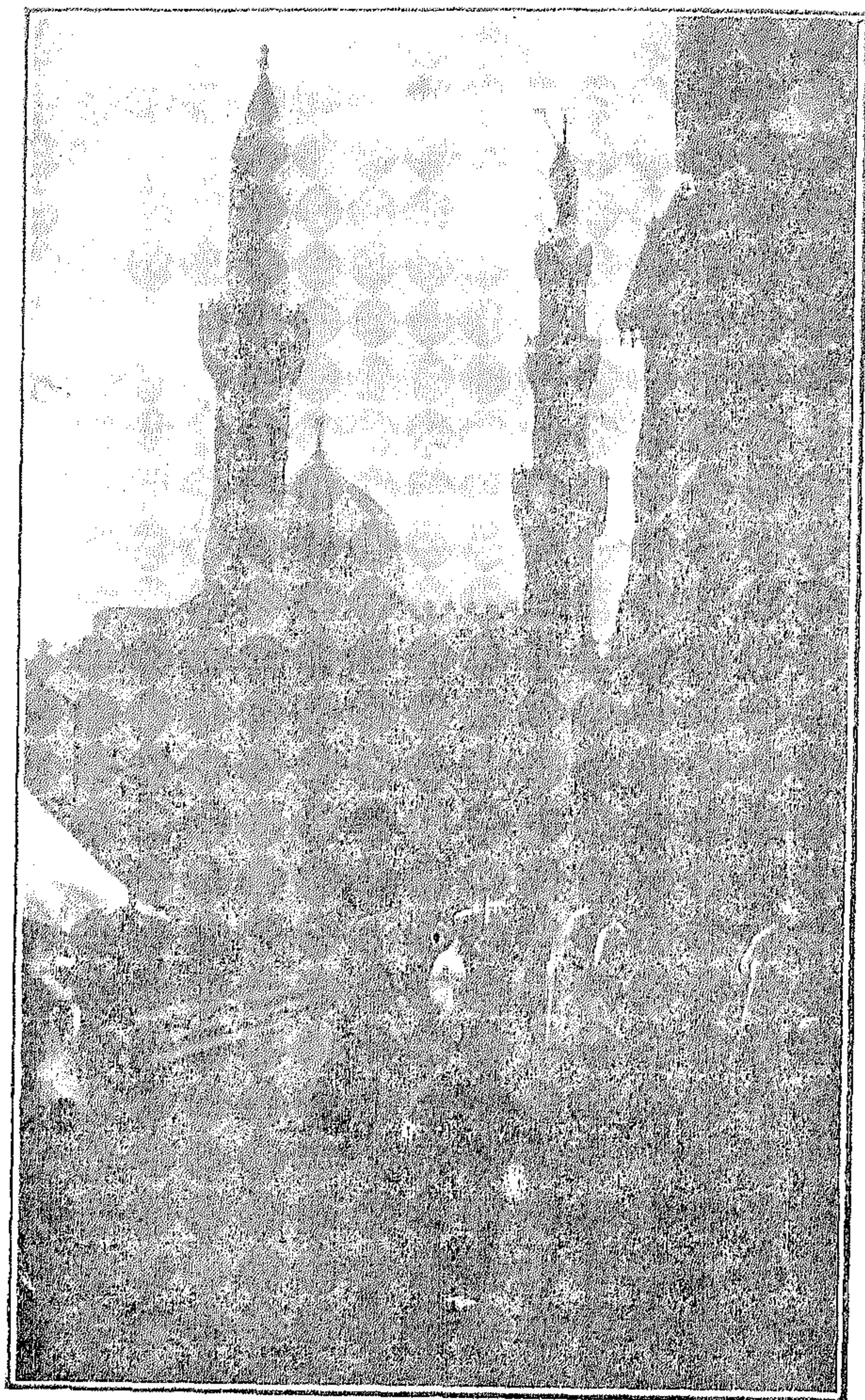
ولقد كان أمر مصر منذ خلقها الله بيد ملكها ، وهي مستقلة ، وواليها وهي ولاية ، ينفرد الواحد منها بحكمها ، وشرع القوانين لها ، وإقامة الحدود دون أن يستأنس برأي عالم ، أو يسترشد بخبرة خبير ، وكثيراً ما كان ذلك سبباً في تأخيرها ، وانحطاطها . مضت في هذا السبيل ، حتى من الله سبحانه وتعالى عليها

عن أُنْقْذَها من بين مَخالِبِ الأَسودِ مُحَمَّدِ عَلِيٍّ باشا، لم يشَأْ أن يستأْثرَ بالحكم في البلاد، بل اختار هو بعضَ علماء الأُمّةِ ومُفكرِها، وألّفَ منهم مَجْلِسًا، سَمَّاهُ المَجْلِسَ النِّيابيَّ، يستشيرُ أعضاءه فيما يَرُقُّ شأنَ البلادِ، ولم يعهدْ إلى أبنائها في اختيار هؤلاء النُوابِ، لأنهم لم يكونوا يَفْقَهُونَ إذ ذاك معنى النِّيايَةِ .

ولما وَلِيَ أَمْرَها مُمَدِّئُها ومُحَضِّرُها، المَغفورُ له إِسماعيلُ باشا، أدخلَ فيما أدخلَ من الإصلاحاتِ طريقةَ الحكمِ النِّيابيِّ، وأنشَأَ مَجْلِسًا نِيايًّا، ولكنَّ هذا النوعَ من الحكمِ حاقتُه عوائقُ كثيرةٌ، أَهْمُها جَهْلُ الشَّعبِ المصريِّ وعدمُ اهتمامِهِ بِمزايا الحكمِ النِّيابيِّ، فكان نصيبُه الزوالَ، وبَقِيَ أَمْرُ البلادِ بَعْدَهُ بأيدي خلفائه، يَحْكُمونها بِمَحْضِ إِرَادَتِهِمْ، وبمعاونةِ وزرائِهِم الذين يَسْتَوِزِرُونَهُمْ من تلقاءِ أَنفُسِهِمْ .

حتى آلَ مُلْكُها إلى ريبِ الحُرِيَةِ، ونصيرِ المَدَنِيَةِ، وملاذِ الإِنسانِيَةِ، جلالَةِ مَوْلانا المَلِكِ أَحْمَدِ فُؤادِ الأَوَّلِ، لم يشَأْ أن ينفردَ بالحكم في البلاد، بل منحَ أُمّتَهُ دُسْتورًا من أَدْقِ دساتيرِ العالَمِ، وتقدّمَ إليها أن تَنْتَخِبَ من أبنائها الأكفاءِ المخلصين الذين

يُؤْتَمِنُونَ عَلَى مَصَالِحِهَا ، وَيُؤَثِّرُونَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَسَنَ قَانُونًا
لِلاتِّخَابِ ، يُنْتَخَبُ بِمَقْنَضَى فَقَرِهِ أَعْضَاءُ الْمَجْلِسِ النِّيَابِيِّ وَمَجْلِسِ
الشُّيُوخِ ، وَهَذَانِ الْمَجْلِسَانِ يُعَاوِزَانِ جَلَالَتَهُ فِي حُكْمِ الْبِلَادِ ، وَوَضَعَ
قَوَانِينَهَا . وَيَشْتَرِكَانِ مَعَهُ فِي اسْتِنَابِ أَنْجَاعِ الْوَسَائِلِ لِتَرْقِيَّتِهَا وَرَفْعِ
شَأْنِهَا ، وَهَكَذَا صَارَتْ حُكُومَةُ مِصْرَ مَلَكِيَّةَ دَسْتُورِيَّةً ، بِفَضْلِ بَرِّ
الْمَلِكِ بِشَعْبِهِ ، وَحُبِّهِ لِتَرْقِيَةِ أُمَّتِهِ ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَذْكُرَ مِقْدَارَ
شَغَفِ جَلَالَتِهِ بِحُبِّ مِصْرَ وَالْعَمَلِ لِخَيْرِهَا ، فَاقْرَأْ هَذَا الْخُطَابَ ،
الَّذِي وَجَّهَهُ لِرَمَايَاهِ الْمَخْلَصِينَ لِسُدَّتِهِ الْعَلِيَّةِ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَقَلَّتْ مِصْرُ
« لَقَدْ مِنْ اللَّهِ عَلَيْنَا بَأْسٌ جَعَلَ اسْتِقْلَالَ الْبِلَادِ عَلَى يَدِنَا وَهَذَا نَحْنُ
أَوْلَاءُ نُشْهِدُ اللَّهَ وَنُشْهِدُ أُمَّتَنَا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْعُظْمَى ، أَنَّنَا لَنْ
نَأْلُو جُهْدًا ، فِي السَّعْيِ بِكُلِّ مَا أَوْتَيْنَا مِنْ قُوَّةٍ وَصِدْقٍ وَعِزْمٍ لِخَيْرِ
بِلَادِنَا الْمَحْبُوبَةِ ، وَالْعَمَلِ عَلَى إِسْعَادِ شَعْبِنَا الْكَرِيمِ ، وَإِنَّا نَدْعُو
الْمَوْلَى الْقَدِيرَ ، أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْيَوْمَ فَاتِحَةَ عَصْرِ سَعِيدٍ يَعِيدُ لِمِصْرَ
ذِكْرَى مَاضِيهَا الْمَجِيدِ » أَيْدِ اللَّهِ مُلْكُهُ ، وَأَطَالُ عُمرُهُ .



الجامع الأزهر الشريف

(٥٦)

إصلاح الأزهر الشريف

مَهْدُ الْعِلْمِ ، وَمَنْبَعُ الْعِرْفَانِ ، وَمَهْبِطُ النُّورِ ، وَكَعْبَةُ الْمُتَعَلِّمِينَ ،
وَقِبْلَةُ الْوَافِدِينَ ، وَمَجْلِسُ الْعُلَمَاءِ ، وَنَادِي الْفَصِيحَاءِ ، شَاحِدُ جَوْهَرِ
بَأْمَرِ الْمُعِزِّ لِدِينِ اللَّهِ الْفَاطِمِيِّ ، وَجَعَلَهُ مَدْرَسَةً جَامِعَةً ، وَدَارَ عِلْمٍ
حَامَةٍ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الطُّلَابُ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ ، يَتَلَقَّوْنَ الْعُلُومَ الدِّينِيَّةَ ،
وَالنَّحْوِيَّةَ ، وَاللُّغَوِيَّةَ ، مِنْ عُلَمَائِهِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ وَظَائِفَهُمْ مِنْ
مُلُوكِ مِصْرَ وَحُكَّامِهَا ، وَمَا زَالَ يَرْتَقِي وَيَعْظُمُ ، وَيَبْعُدُ صِبْغُهُ ،
وَيَتَدَيَّعُ ذِكْرُهُ ، بَيْنَ الْعَالَمِينَ ، حَتَّى صَارَ مَحَطَّ رِحَالِ الْمُتَعَلِّمِينَ مِنْ
كُلِّ دَوْلَةٍ شَرْقِيَّةٍ ، وَمُتَشَجِّعَ رُؤَادِ الْعِرْفَانِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ ،
وَكَلَّمَا زَادَ خَطَرًا وَطُلَّابًا ، زَادَهُ الْفَاطِمِيُّونَ وَالْأَيُّوبِيُّونَ نَخَامَةً وَعِمَارَةً ،
وَتَبَارَى النَّاسُ فِي حَبْسِ ضِيَاعِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ طَافَ بِهِ طَائِفٌ مِنْ
الْإِهْمَالِ فِي عَهْدِ الْعُثْمَانِيِّينَ ، كَادَ يَذْهَبُ بِهَائِهِ ، وَيَقْضَى عَلَى الْعِلْمِ
فِي مِصْرَ بِالْفَنَاءِ ، لَوْلَا أَنَّ مَنْ اللَّهَ عَلَيْهَا بَتَلَكِ الْأُسْرَةُ الْعَلَوِيَّةُ
الْمُبَارَكَةُ ، فَعَرَفَ مُلُوكُهَا لِلْأَزْهَرِ فَضْلَهُ ، وَأَعَادُوا لَهُ ذِكْرَهُ ، وَنَشَرُوا
عَلَى الْمَلَأِ ظِلَّهُ ، فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ حَيَاتُهُ ، وَعَاوَدَهُ نَشَاطُهُ ، وَصَارَ
أَكْبَرُ جَامِعَةِ إِسْلَامِيَّةٍ ، تُقَطَّعُ إِلَيْهِ الْيَدُ وَالْفِيَّافِي ، وَتُضْرَبُ لَهُ
أَكْبَادُ الْإِبِلِ .

حتى جلس على عرش مصر نصير العلم، وعماد الدين، جلالة
الملك أحمد فؤاد الأول، وأخذ يُصْلِحُ كلَّ مرافق الحياة في مصرَ
وَيَثِّبُ دعائم رُقِيَّهَا، وجعل أساس الإصلاح نشر العلم في كل
مكان، لم يَشْغَلْهُ إحياء العلوم الحديثة، وإنشاء المعاهد والمدارس
عن الأزهر وأثره، بل عرف أننا أمةٌ شرقيَّةٌ، يحتكمُ فينا ديننا،
ولنا أخلاقنا وعاداتنا، وعرف أن الأزهر منبعُ حُجَّةِ الدين وحُرَّاسِ
الأخلاق، فأتجهتُ نيتُهُ إلى ترقية شأنه، وتهذيب نظمِهِ،
وإصلاح أساليبه، وتعليم طلابِهِ علومًا حديثةً، وفنونًا جديدةً،
حتى إذا أتموا دراستهم انْفَسَحَ أمامهم مجالُ الحياة، واتسع ميدانُ
العمل، وبزغوا في البلادِ بزوغَ الكواكبِ في السماء، وكانوا
أَحْسَنَ أُسْوَةٍ للعالمين، وخيرَ هُدَاةٍ للعاصين، وقَضَوْا بين الناسِ
بالعدل، وأرشدوهم إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وهذبوا من
أخلاقهم كلَّ مُعْوَجٍّ، وأقاموا كلَّ مائلٍ .
أرأيتَ يا هذا كيف عني المليكُ المحبوبُ بالأزهر وداخليه،
والدين وطالبيه، والقرآن وحافظيه؟ . أرأيتَ كيف طَبَعَ من
القرآن الكريم مِثَّاتِ الآلافِ من المصاحفِ بأبداعِ خطٍّ، على
أمتي وِرقٍ، وأمرَ بنشره بين ممالكِ العالمِ الإسلامي طُرًّا؟
أليس المليكُ بعد هذا نصيرَ العلم، والدين، والأخلاق؟ .

(٥٧)

الجامعة المصرية

لَهُ اللهُ مَا فَتَى مِنْذُ وَلَّى أَمْرَ مِصْرَ يَبْذُرُ بِذَوْرِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ
فِيهَا ، وَيَنْشُرُ الْمَعَارِفَ بَيْنَ رِبْعِهَا ، وَيُسَهِّلُ لَطَالِبِي الْعِلْمِ الْمَشَارِعَ ،
وَيُدَلِّلُ لَهُمُ الْمَنَاهِلَ ، فَمِنْ مَعَاهِدِ تَشِيدُ ، وَمَدَارِسَ تُنْشَأُ ، وَكُتُبٍ
تُؤَلَّفُ ، وَمُعَلِّمِينَ يُعَلَّمُونَ ، وَجَامِعَةٍ أَزْهَرِيَّةٍ تُنْظَمُ ، وَإِجْبَارٍ لِلنَّاسِ
عَلَى تَعْلِيمِ أَبْنَائِهِمْ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ضُرُوبِ التَّشْجِيعِ وَوَسَائِلِ
التَّرْغِيبِ ، لَمْ يَكْفِ مَلِيكُنَا ذَلِكَ ، بَلْ أَعْظَمَهُ وَهُوَ بَاغِي الْكَمَالِ لِأُمَّتِهِ
وَنَاشَدُ الرِّقَى لَشَعْبِهِ ، أَنْ يَرَى أَبْنَاءَ أُمَّتِهِ إِذَا أَرَادُوا النُّبُوغَ فِي
الْعُلُومِ ، وَالتَّبَحُّرَ فِي الْفُنُونِ ، لَمْ يَجِدُوا سَبِيلَ ذَلِكَ مُعَبَّدًا فِي بِلَادِهِمْ
بَلْ يَهْجُرُوا الْأُوطَانَ ، وَيَفَارِقُوا الْأَهْلَ وَالْخُلَآنَ ، وَيَرْكَبُوا مَتُونَ
الْبَحَارِ ، وَيَسْتَهْدِفُوا لآلَامَ الْغُرْبَةِ وَخَطَرَ الْأَسْفَارِ ، وَيَعِيشُوا
فِي دِيَارٍ لَمْ يَأْلَفُوهَا ، وَيُعَاشِرُوا بِيَنَاتٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا ، وَيَرَضَعُوا لِبَنَاتِ
الْعِلْمِ مِنْ أَفْوَاهِ الْأَجَانِبِ الَّذِينَ قَدْ لَا يَهْمُهُمْ سَعْدُنَا وَشَقَاؤُنَا ،
وَارْتَقَاؤُنَا وَانْخِطَاطُنَا ، ثُمَّ يَعُودُ هَؤُلَاءِ الْمَبْعُوثُونَ وَقَدْ غَلَبَتِ الْعُجْمَةُ
إِعْرَابَهُمْ ، وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ

رأى جلالتَهُ أن يتلافى هذا النقصَ ، وَيُتِمَّ صَرَحَ العلمِ في
مصرَ وَيُرِيحَ المتعلمين من المشاقِّ وَيُسِّرَ لَهُم سُبُلَ تحصيلِ العلمِ ،
ويحتفظَ بأخلاقِ الناشئين ، ويمتّعَ أُمته بمزايا الاستقلالِ ، ويعيدَ
لمصرَ مجدها القديمَ ، فأصدرَ أمرَهُ الكريمَ بإنشاءِ جامعةٍ مصريةٍ
تُحاكي أعظمَ جامعاتِ العالمِ يَدْخُلُها المتعلمون بعد أن يكونوا قد
قطعوا مراحلَ التعليمِ الابتدائية والثانوية والإعدادية

أنشأها الملكُ وعهدَ بإدارتها الى فيلسوفٍ من فلاسفةِ مصرَ
العظامِ ، وبالتعليمِ فيها إلى جهابذةِ العلماءِ ، وفلاسفةِ الحكماءِ
من الأوربيينَ والمصريين . وعما قليلٍ يظهرُ ذكاءُ المصريِّ ،
وأثرُ إدراكِهِ وفهمِهِ ، في حلِّ المعضلاتِ العلميةِ ، ومعرفةِ أسرارِ
المخترعاتِ الجديدةِ ، وعما قليلٍ يُشارُ إلى جامعةِ مصرَ بالبنانِ ،
ويُحجُّ إليها الطلابُ من كلِّ مكانٍ ، يغترفون من بحارِ العلمِ في
مصرَ الحديثةِ ، كما كانوا يغترفون من بحارِ العلمِ في مصرَ القديمةِ
هدى اللهُ أمتنا طريقَ الرشادِ ، وكفاها شرَّ العوائقِ ، وحرسَ
لها مُصْلِحَ جامعِها الأزهريةِ ، التي تفاخرُ بها سائرُ الأممِ الشرقيةِ
وكلاً بعينِ عنايته منشئُ جامعِها المصريةِ ، التي سيُخرجُ فيها
بناةَ مجدِ مصرَ وبُناةَ خيرِها وسعادتها

(٥٨)

مَصْرِفُ (بَنكِ) مِصْرَ والشَّرَكَاتِ

المصارفُ هي بيوتُ الأموالِ التي يشتركُ في تأسيسها مَنْ شاءَ من ذوى المالِ في الأُمّةِ، ورؤوسُ أموالها وأموالِ الشرَكَاتِ ، تنقسمُ الى أسهمٍ ذاتِ ثمنٍ زهيدٍ يَسَهِّلُ معه على السوادِ الأعظمِ من الأُمّةِ ، أن يشتركَ في بناءِ أساسِ هذا المَصْرِفِ أو الشرَكَةِ ولكلِ إنسانٍ أن يأخذَ نصيبَه من أسهمِ رأسِ مالِ الشرَكَةِ أو المَصْرِفِ ، ما دام قادراً على دفعِ الثمنِ ، وما دامَ غيرَ مخالفٍ لقوانينه ونُظُمِهِ الداخلية . وإذا تمَّ تأسيسُ المَصْرِفِ أو الشرَكَةِ واستُعْمِلَ رأسُ المالِ في الأغراضِ التجاريةِ التي أنشئُ من أجلها . عاد ذلك بربحٍ عظيمٍ على أصحابِ رؤوسِ المالِ . ووُزِعَ هذا الربحُ على الأنصبةِ توزيعاً متساوياً ، وأُخذَ كلُّ ذى سَهمٍ من أسهمِ رأسِ المالِ نصيبَه من الربحِ . وهكذا يتسنى للفقيرِ والغنيّ أن ينتفعَ كلُّ منهما بما ادَّخَرَ من المالِ قليلاً كان أو كثيراً . وهكذا يمكنُ أن تُجمَعَ القناطيرُ المقنطرةُ من الذهبِ والفضةِ من أيدي مَنْ لا يحسنون تنميةَ المالِ وتشميره . ويمكنُ أن تتألفَ من

المقادير الصغيرة مقادير كبيرة تقوم بأعمال خطيرة ، تعود على الأمة بالرقى والإصلاح ، وعلى المشتركين بالربح العظيم .

لعلك تدرك بعد هذا البيان أن المصارف والشركات من أكبر الوسائل في ترقية الأمم فإنها تقوم بما لا يضطلع به الأفراد من الأعمال الجليلة ، كإنشاء السكك الحديدية ، والترام والأسواق والمتاجر العظيمة ، والنقل ، والزراعة ، والشركات الصناعية الكبرى ، وشركات التعاون ، وإقراض الزرايع ، والصناعات ، والتجارة الاموال . وتسهيل سبيل التجارة والمعاملات بين أفراد العالم ودوله .

رأى ملوك الدولة المحمدية العلوية أن يرقوا مصر ، وأن يوجدوا بينها وبين دول العالم روابط ألفية ومنفعة ، فأفسحوا المجال لنوى المال من الأمم الغربية ، فأقبلوا على مصر من كل فيج ، وأسسوا فيها المصارف الكبيرة ، والشركات العظيمة التي ساعدت مصر على السير في طريق الرقى والتي عادت على مؤسسيها بأرباح لا سبيل لحصرها . وهكذا انبثت المصارف وفروعها . والشركات ورسلها في أحشاء مصر ، واحتلت البلاد احتلالاً مالياً واقتصادياً ، وأصبح في عُنق كل مصري غُلٌّ من أغلال

الديون الأجنبية ، حتى إذا جلس على الأريكة المصرية ، جلالة الملك السعيد أحمد فؤاد الأول عم الرخاء مصر ، وامتلات خزائن سرّاتها مالا ، وقضى أكثر المصريين ديونهم . وبدأ لبعض ذوى الغيرة والحمية الوطنية ، أن يجعلوا لمصر في باب المصارف المالية والشركات مقاما معلوما ، فأسسوا مصرف مصر ، ودّعوا أبناء الأمة للاشتراك في هذا البناء المبارك ، فلبى الناس الدعاء ، وأقبلوا يتهافئون رجالا ونساء شيبا وشبانا ، على شراء أسهمه ، وسرعان ما أنشأ المصرف المكاتب ، والمخازن ، والفروع في نواحي البلاد ، وتناول أعمال المصارف المالية ، والتجارية . وتبارى المصريون في معاملته وإيداع أموالهم خزائنه ، وها هو ذا يؤدي كل عام ربحا للمشاركين فيه جزيلا ، ويسمى في إنشاء الشركات التجارية ، والصناعية ، ويشترك في تأسيسها . ولقد بلغ من ثقة الحكومة ومجالس المديريات والمجالس البلدية به ، أن اتجهت النية إلى إيداع أموالهن خزائنه

ولا شك في أن الفضل في إنشاء هذا المصرف ، يؤول إلى الرخاء المالي العظيم والغيرة الوطنية اللذين شملا مصر في عصر مليكها المحبوب أحمد فؤاد الأول . جعل الله أيامه أيام يمن ، ورخاء وسعادة وإقبال

(٥٩)

السُّفَرَاءُ وَالْمُمَثِّلُونَ

استبانَ للعالمِ بعدَ طولِ الجَفَاءِ والتَّنَافُرِ، والبغضِ والتناكُرِ
أن خيرَ وسيلةٍ لرقىِ المدينةِ، والحضارةِ، والعلمِ، التعارفُ،
والتآلفُ والارتباطُ بروابطِ المنفعةِ الماديةِ، والأدبيةِ، فأنشأتِ
الدولُ الطُّرُقَ البحريةَ البخاريةَ، والبريديةَ، والبرقيةَ، وطرقَ
المواصلاتِ البريةَ، واتصلتْ كلُّ دولةٍ بالأخرى، وتبادلنَّ
التاجرَ والمنافعَ، واقتضى ذلك أن يكونَ لكلِّ أمةٍ سفراءُ ونوابٌ
في سائرِ الأممِ، يُمَثِّلُونَهَا، ويتكلمونَ بِأَسْمِهَا، وَيَسْعَوْنَ في ترقيةِ
مُتَاجِرِهَا، ومَصَانِعِهَا، ويدافعونَ عن كَرَامَتِهَا وَشَرَفِهَا، ويؤاَفُونَهَا
بأخبارِ الدُّوَلِ التجاريةِ، والماليةِ، والاقتصاديةِ، والصحيةِ،
والعلميةِ، والسَّاسيةِ، حتى تُصَادِقَ مِنْهَا مَا تَرَى الخَيْرَ في
مَصَادِقَتِهَا، وَتَحْذَرُ شَرَّ مَا تَتَوَجَّسُّ مِنْهَا خِيفَةً، وَتَتَجَرَّعَ هَذِهِ،
وَتُقَاطِعَ تِلْكَ، أَخْذًا بِالْأَخْبَارِ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُبْعُوثِينَ،
الَّذِينَ بَثَّتْهُمْ فِي نَوَاحِي الدُّنْيَا، وَجَعَلَتْهُمْ عِيُونًا تُبْصِرُ بِهَا عَنْ كَثَبِ

أحوال الأمم رُقيًا، وانحطاطًا، وُدًا وإخلاصًا .
مضى العالمُ في هذا السبيلِ دهرًا طويلًا ، يَجْنِي ثَمَارَ هذا
التعارُفِ التِّجَارِيَةِ وَالسِّيَاسِيَةِ ، وَمَصْرُ بِمَعزِلٍ عَنِ الدُّوَلِ لَا تَعْرِفُ
مِنْ أَحْوَالِهَا شَيْئًا ، إِلَّهْمُ الْآنَ مَا تَتَلَقَّه مِنْ بَعْضِ الصَّحُفِ ،
وَأَفْوَاهِ التِّجَارِ الْأَجَانِبِ ، وَإِذَا حَزَبَهَا أَمْرٌ ، أَوَّالَمَ بِهَا خَطْبٌ ،
أَوْ أَرِيدَتْ بِسُوءٍ ، أَوْ جَدَّ مَا يَدْعُو إِلَى مَبَادِلَاتٍ دُولِيَّةٍ ، أَوْ
مَحَادَثَاتٍ عَالَمِيَّةٍ ، نَابَ عَنْهَا فِي ذَلِكَ ، سُفَرَاءُ الدُّوَلِ ذَوَاتِ السِّيَادَةِ
عَلَيْهَا ، كَالدُّوَلَةِ الْعَلِيَّةِ أَوَّلًا ، ثُمَّ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ثَانِيًا ، وَأُظُنُّكَ تَعْرِفُ
أَنَّ هَذَا السَّفِيرَ الْأَجْنَبِيَّ ، يُؤَثِّرُ نَفْعَ بِلَادِهِ غَيْرَ نَاضِرٍ إِلَى صَالِحِ
مِصْرَ ، وَلَا مَنْفَعَةَ الْمِصْرِيِّينَ ، عَزَّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ نَالَتْ عَلَى يَدِهِ
اسْتِقْلَالَهَا ، وَمَانِحَهَا دَسْتُورَهَا ، وَمُثَقِّفِ عَقُولِ أبنائها ، جَلَالَةِ
مَوْلَانَا الْمَلِكِ أَحْمَدَ فُؤَادِ الْأَوَّلِ ، وَرَأَى أَنَّ اعْتِمَادَ مَمْلَكَتِهِ فِي
مَخَابِرَاتِهَا السِّيَاسِيَةِ وَالتِّجَارِيَةِ عَلَى مُمَثِّلِي غَيْرِهَا ، ثُلْمَةٌ فِي صَرْحِ
اسْتِقْلَالِهَا ، وَصَدَعٌ فِي جِدَارِ حُرِّيَّتِهَا ، فَأَمْرَ حَرَسَهُ اللَّهُ ، أَنْ يُجْتَازَ
مِنْ بَيْنِ أبنَاءِ الْأُمَّةِ ، رِجَالٌ ذَوُو كِفَاءَةٍ وَعِلْمٍ بِالْأُمُورِ السِّيَاسِيَةِ
وَالشُّؤُنِ التِّجَارِيَةِ ، وَالْقَوَانِينِ الدُّوَلِيَّةِ ، وَأَنْ يَكُونُوا ذَوِي ذَكَاءٍ

فَطَرِيَّ ، ووطنية صادقة ، وأن يُبعثَ بهؤلاء إلى عواصم دُولِ
العالم ، ومُدُنِهِ الكبيرة ، ليكونوا سفراء مصر في تلك الدول ،
وليمثلوها هناك ، ويسعوا في رواج تجارتها ، ويُعلنوا عن حاصلاتها
ويَقُوُّوا أواصر الألفة والمودة بينها وبين دول العالم ، ويفهموا
الملا ، أن في وادي النيل أمةً فتيّةً وشعباً ناهضاً ، أخذ بيده
ملكٌ يدينُ بترقية شئونهِ ، أفلا يجدُرُ بنا بعد ذلك ، أن نتوجه
إلى الله بقلوب خالصة ، ونفوس مطمئنة ، ونسأله أن يتولى عنا
جزاءَ مليكنا ، ويثبتَ قواعدَ مُلكِهِ ، وينبِتَ وليَّ عهده
الكريمَ نباتاً حسناً ؟

(٦٠)

الهيئات النيابية

عَلِمَ اللهُ أَنَّ مِصْرَ أَخَذَتْ نَصِيبَهَا كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنَ
الظلم والاستبداد ، قبل أن تُشْرِقَ فِيهَا شَمْسُ الْأُسْرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ
الْعُلُويَّةِ ، وَأَنَّ الْجَبْنَ وَالْإِسْتِسْلَامَ لِلْحُكَّامِ وَالنُّزُولَ عَلَى إِرَادَتِهِمْ
ظَالِمِينَ أَوْ عَادِلِينَ ، امْتَزَجَتْ بِدِمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ امْتِزَاجًا ، فَأَرَادَ
تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، وَتَنَزَّهَتْ صِفَاتُهُ ، أَنْ تَنَالَ مِنَ الْحَرِيَّةِ قِسْطًا
يُنْسِيهَا أَلَمَ الظلمِ وَإِغْنَاتِ الْحُكَّامِ ، فَمَنْعَ عَلَيْهَا بِمُلُوكِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ
الْعُلُويَّةِ الشَّرِيفَةِ يُنْقِذُونَهَا ، وَيَشْرَعُونَ لَهَا مِنَ الْحُكْمِ النِّيَابِيِّ
أَنْوَاعًا تَلَامُ تَدْرِجَهَا فِي سَبِيلِ الْمَدِينَةِ وَالْحَضَارَةِ .

فَجَالَسُ الْمَدِيرِيَّاتِ وَهِيَ مِنْ صُنْعِ أَيْدِيهِمْ ، هَيْئَاتٌ نِيَابِيَّةٌ ،
يُنْتَخَبُ أَعْضَاؤُهَا مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْأَكْفَاءِ ، تَتَوَلَّى تَرْقِيَةَ التَّعْلِيمِ
وَتَهْدِيبَ الْأَخْلَاقِ ، وَتُعَاوِنُ الْحُكُومَةَ فِي إِقَامَةِ جِدَارِ الْأَمْنِ
فِي الْبِلَادِ ، وَفِي الشُّعُونِ الزَّرَاعِيَّةِ ، وَالتَّجَارِيَّةِ ، وَالرِّقَى ، وَغَيْرِ ذَلِكَ
وَالْمَجَالِسُ الْبَلَدِيَّةُ ، وَالْمَحَلِّيَّةُ ، وَالْقَرَوِيَّةُ ، وَهِيَ مِنْ مُنْشَأَتِهِمْ ،

ينتخبُ أعضاؤها من أهل العلم ، وذوى المصالح في المدن ، وهي التي تُحضّرُ المدائن ، وترقيها ، بما تُنشئُ فيها من متزهاتٍ ، وشوارع ، وأنابيب ماء ، وكهرباء ، وبما تُشيدُ فيها من مستشفيات وملاجئ ، ومعاهد ، ومسارح ، وما إلى ذلك من وسائل التمدن والتحضير ، والمجالس الحسبية ، وأعضاؤها يختارون من ذوى الأخلاق الفاضلة ، والقلوب الرحيمة ، وتتولى حراسة أموال السفهاء ، والمجانين ، والأيتام ، وتنميّتها ، وتنصيب الأوصياء والقوَّام ، ولجانُ الشياخات : وأعضاؤها يختارون من ذوى الدراية بواجبات العمد ، ورجال الأمن في الديار ، وهم الذين يُنصبون العمد والمشايخ في مناصبهم ، ويتولَّون تأديب المهملين منهم ، بالاشتراك مع رجال الإدارة الكبار ، ولجانُ الريّ وينظرُ أعضاؤها في عقاب من يعتدون على جسور النيل وجداوله أو يسترقون ماءً ليس لهم فيه نصيبٌ ، ولجانُ النيل وعملها تديرُ الرجال والخفراء لحماية جسوره من التأكل والانهيار .

وهناك لجانٌ أخرى نيايةٌ ، بعضها للتوفيق بين المتنازعين من الأسرات ، والمتجاورين من الملأك ، وبعضها لمعاونة الحكومة

في إدارة شئون البلاد : تلك هيئات نيابية ، يتطوع أعضاؤها
لخدمة بلادهم ، والعمل على ترقيتها ، وإذا أنت بحثت في تاريخها
وأعمارها ، وجدتها جميعها من تشريع ملوك هذه الأسرة المباركة ،
وعرفت أنهم نزاعون الى الحكم النيابي ، واستشارة أولى النهى
من أبناء الأمة ، منذ ملكهم الله في الأرض ، وحسبك
دليلاً على ذلك ، ما ختم به سليل المجد ، جلالة مولانا الملك
أحمد فؤاد الأول ، تلك الرواية العجيبة ، ذلك هو الدستور
المصري والمجلس النيابي ، الذي جادت به نفسه عن طيب خاطر
والذي جاء أسطع برهان على سمو نفسه ، وامتلائها بحب الخير
لأمته وبلاده ، عاش المليك ، حتى يرى أغراس إصلاحه لبلاده
أثمرت ، ويراها ألمع ذرة في جبين الدنيا .

(٦١)

الجمعيات

كما أن للأرباح المادية شركات ومصارف، يَشتركُ في تأسيسها ذوو الأموال، ثم تُستثمرُ رؤوس أموالها، ويُوزَعُ الربحُ على المشتركين، كذلك للأعمال الخيرية شركات وجمعيات، يَشتركُ في تأسيسها أولو القلوب الرحيمة والأُنفس الكريمة، تتألفُ رؤوس أموالها من هؤلاء الأخيار، ثم تُنفقُ في أعمال البرِّ والإحسان، وفيما يعودُ على الأمة بالرقى والسعادة، ومؤسسوها لا يَبْتَغُونَ من وراء هذا العمل جزاءً ماديًا، ولكنَّ لهم شعورًا فيَّاضًا، وضمائرَ حيَّةً، تُنسيهم الأثرةَ والأنانيةَ، وتدفعهم إلى الأخذِ بيد الضعيف، ليجمعوا حولهم قلوبًا راضيةً، وألسنةً داعيةً، وليستبدروا بذلك كرمَ الله وبرَّهُ، وَيَزَكُّوا أموالهم ونِعَمَ الله عليهم.

وإذا أنت أردت أن تعرفَ شيئًا عن الجمعيات المصرية، فهناك الجمعية الخيرية الإسلامية، التي انتشرت مدارسُها في كثيرٍ من مدائن القطر، وحملت من التعليم عبئًا كبيرًا تحذو وحذوها في

ذلك جمعية العروة الوثقى بالإسكندرية ، وجمعية المساعى
المشكورة بالمنوفية ، والجمعية الخيرية القبطية وغيرها ، وهناك
جمعيات أخرى كثيرة ، تؤدي للإنسانية أجل الأعمال ، جمعيات
الإسفاف ، التى تعمل فى حوادث الغرق ، والحريق ، والإغماء ،
والتصادم ، على دفع غوائل الموت ، وجمعيات الهلال الأحمر ، التى
تعين الجرحى ، والمرضى ، وتولى علاجهم ، وتمريضهم وتخفيف
آلامهم فى الحروب ، وجمعية المؤاساة الإسلامية ، التى تشعبت
شرايينها فى جسم الأمة ، ودخلت كل دار ، وأغاثت كل ملهوف ،
وجمعيات الرفق بالحيوان ، التى عمّ فضلها وانتشر خيرها ، والجمعيات
الزراعية ، والصناعية ، والغرف التجارية ، التى يئذل أعضاؤها
النفس والنفيس فى ترقية الزراعة ، والصناعة ، والتجارة فى البلاد ،
لعلك يا هذا تذكر قول القائل (الناس على دين ملوكهم) ،
نعم جرى المصريون فى إنشاء الجمعيات الخيرية على سنة ملوكهم ،
صاحب الجلالة أحمد فؤاد الأول ، الذى قضى حياته الشريفة
يخدم الإنسانية ويبرئها ، ويتفق فى سبيلها المال والراحة ،
وأظنك لا تنسى أن جلالة كان رئيساً للجامعة المصرية منذ

أنشئت، ولكم أفادها بماله وبآرائه السديدة، وبما بذل لطلابها من عناية ومؤازرة، حتى أتموا دراستهم في جامعات أوربة بمساعي جلالته المشكورة، ولعلك لست ناسياً أن جلالته كان رئيساً لجمعية الهلال الأحمر، في إبان الحرب العالمية، فسار بها سيراً جعلها من أرقى جمعيات العالم، وأن جلالته كان رئيساً لجمعية الإسعاف، والجمعية الجغرافية، وأنه كان في وقت واحد رئيساً لاثنتي عشرة جمعية خيرية، يُمدُّها بماله طيب النفس مُتاح الضمير، أليس المصريون بعد ذلك جديرين بأن يبذلوا في هذا الباب ما يُقيم جدار الإنسانية، اقتداءً بملكهم الذي طُبِعَ على حب الخير لبلاده وشعبه؟

إن ملكنا ظفر من قلوب المصريين بأخصب مكان للحب، وجلس على عروشها قبل أن يجلس على عرش مصر.

(٦٢)

الفنون الجميلة

لمصر في الفنون الجميلة قدم راسخة منذ القدم ، تشهد بذلك آثارها الخالدة ، وتقوشها ورسومها التي وقف أمامها علماء الأجيال الجديدة خاشعين مشدوهين ، غير أن الجهل الذي خيم على ربوعها ، والظلم الذي حاق بها قبيل هذا العصر الحديث ، أنسيها الجمال ، ورغبها عن الكمال ، وأفقدناها سلامة الذوق ، ورقة الطبع ، ودقة الصنع ، وإتقان الأعمال ، وأفادنا أهلها خشونة وغلظة ، ولست تجد غليظ الطبع فنيًا .

على أن الفنون الجميلة لا تروج أسواقها في البلاد ، إلا إذا كانت قد قطعت في الحضارة والمدنية شوطًا بعيدًا ، والفنون الجميلة مع ذلك ، لا تأخذ زخرفها وتزيين ، إلا إذا وجد الفنيون تشجيعًا ومعونة من أفراد الأمة وملوكها .

وإذا كنت قد عرفت أن جلالة ملكنا محبوب ، نشأ في حضن الملك التليد ، وترعرع في أرقى بلاد العالم مدنية ، وإغرامًا

بالجمال وفنونه ، فأعرف أنه ما كاد يطمئن على عرش مصر ،
ويقود سفينتها إلى شاطئ المدينة والحضارة ، حتى بذل من عنايته
للفنون الجميلة قسطاً عظيماً ، فأنشأ مدارس الزخرفة ، والرسم ،
والخط ، والنحت ، والتصوير ، والحفر ، والوشى ، وأقبل الطلاب
والطالبات على تعلم الفنون الجميلة ، فبرعوا فيها براعة لا تقل
عن براعة الغربيين ، حتى لقد بهر الناس ما صنعت أيدي المصريين
والمصريات ، من المعروضات الجميلة التي عُرِضَتْ في معارض
الصناعة والفنون ، ونال أصحابها الجوائز والأوسمة من جلالة الملك ،
وها هو ذا فن الموسيقى ، قد ارتقى في عصر جلالاته ارتقاءً عظيماً ،
وأنشئت له الأندية في كثير من حواضر البلاد ، وأقبل على
تعليمه أرقى الرجال والنساء ، أما مسارح التمثيل وما يمثل فيها
من الروايات ، فحدثت عن رقيها ولا حرج ، وهي إذا ارتقت
كانت مدارس للأخلاق والتاريخ ، وإلزام تلاميذ المدارس
وتلميذاتها في أيامنا هذه بتلقى دروس الرسم ، والتصوير ، والتمثيل ،
والخيالات ، والموسيقى ، في مدارسهم ، أسطع برهان على حب
الملك ورجال حكومته للفنون الجميلة ، ولتربية الذوق السليم ،

والشعور الحيّ في نفوس الناشئين والناشئات ، حتى ينشدوا
الكمال والإتقان في كل أعمالهم ، ويتسنى للمصري أن يجارى
العربي في حُسن العَرْضِ ، والترتيب ، وتأليف الألوان والألحان ،
وما إلى ذلك من ضروب الجمال وفنون الكمال .

ولا شكّ أن جلالة الملك السعيد الموفق في كل أموره ،
واصل بشعبه الكريم إلى أبعد غايات المدنية ، وأسمى مراتب
الجمال ، كلّل الله مساعيّه بالنجاح ، وجعله حمى لبلاده وأمته .

(٦٣)

عَصْرُ مِصْرَ الزَّاهِرُ

إِذَا أَنْتِ سَأَلْتَ الصَّانِعَ فِي مَصْنَعِهِ ، أَوِ الْعَامِلَ فِي مَعْمَلِهِ ،
أَوِ الزَّارِعَ فِي حَقْلِهِ ، أَوِ الْمُسْتَحْدِمَ فِي دِيْوَانِهِ ، أَوِ الطَّالِبَ فِي
مَعْبَدِهِ ، أَوِ الْمَرْأَةَ فِي خِدْرِهَا ، أَوِ الْعَابِدَ فِي مَعْبَدِهِ ، أَوِ التَّاجِرَ فِي
حَانُوتِهِ ، عَنْ أَزْهَى عِصُورِ مِصْرَ وَأَرْخَاهَا ، أَجَابَكَ عَلَى الْفُورِ .
— عَصْرُ الْمَلِكِ الْمَحْبُوبِ أَحْمَدُ فُؤَادِ الْأَوَّلِ — وَسَاقَ لَكَ أُدْلَةَ
سَاطِعَةً ، وَبِرَاهِينَ قَاطِعَةً .

نَعَمْ إِنْ الزُّرَّاعَ الْمِصْرِيِّينَ وَهُمْ سَوَادُ الْأُمَّةِ الْأَعْظَمُ لَمْ يَمُضْ
عَلَيْهِمْ عَصْرٌ كَهَذَا الْعَصْرِ ، فَهَمُّ أَحْرَارٍ فِيمَا يَزْرَعُونَ ، وَفِيمَا يَبِيعُونَ
أَوْ يَتَخَرُونَ ، وَهُمْ وَاجِدُونَ كُلَّ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ رُقَى زِرَاعَتِهِمْ ،
وَنَمَائُهَا ، مِنْ آلَاتِ زِرَاعِيَّةٍ ، وَمَاشِيَةٍ ، وَبَذُورٍ وَمَاءٍ ، وَهُمْ يَسْكُنُونَ
الْقُصُورَ الْفَخْمَةَ ، وَيَقْتَنُونَ الْخَيْلَ ، وَالْبِغَالَ وَالْجُمُوحَ لِيَرْكَبُوهَا
وَزِينَةً ، وَيَتَخَذُونَ السِّيَّارَاتِ وَالْعَرَبَاتِ ، وَتَمْرٌ بِقُرَاهِمَ وَمَدَنِيهِمْ
الْقُطْرُ ، وَتُنْشَأُ فِيهَا الْمَدَارِسُ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ
وَالْإِطْمِنَانِ فِي الْحَيَاةِ

أما التجارُ ، فإنَّ المصارفَ الماليةَ ، والرِّخاءَ العامَّ ، ورقى
الزراعةَ ، وازدحامَ البلادِ بالسكان ، وانتظامَ طرقِ المواصلاتِ
في جميعِ الديارِ ، كلُّ أولئك جعلهم يربحون أرباحاً عظيمةً ويقبلون
على تجارتهم آمنين شرَّ العواقبِ ، وكذلك كلُّ ذى صناعةٍ في
مصرَ الآن يجدُ سبيلها مُعبداً ، فالمتعلمُ يجدُ وسائلَ العلمِ في مصرَ
ميسرةً مُسهلةً في كلِّ أرجائها ، والمسافرُ يجدُ القطرَ ، والسُّفنَ
والعرباتِ ، والسياراتِ ، والدراجاتِ ، قد انتشرت بين المدنِ
والقرى انتشاراً عظيماً .

والمريضُ يجدُ أسبابَ التداوى كثيرةً أينما حلَّ ، وتكادُ البلادُ
يرتبطُ بعضها ببعضٍ بالمسراتِ ، والأسلاكِ البرقيةِ ، والمواصلاتِ
البريديةِ ، ولا شك أن ذلك من أكبرِ أسبابِ الرقى ، والعدلِ
منتشرٌ في نواحي الديارِ ، والأمنُ مخيمٌ على جميعِ ربوعِ مصرَ ،
والمتنزهاتُ البديعةُ ، والشوارعُ العظيمةُ ، والمسارحُ الهائلةُ ،
والمصائفُ والمشاتي ، والمعارضُ ودورُ الآثارِ ، كلُّ أولئك من
من أسبابِ الراحةِ ، ووسائلِ الرقى والمدنيةِ ، ويكادُ المرءُ إذا طاف
بأحدِ شوارعِ عاصمةٍ من العواصمِ المصريةِ ، يقفُ جامدَ الدَّمِ ،

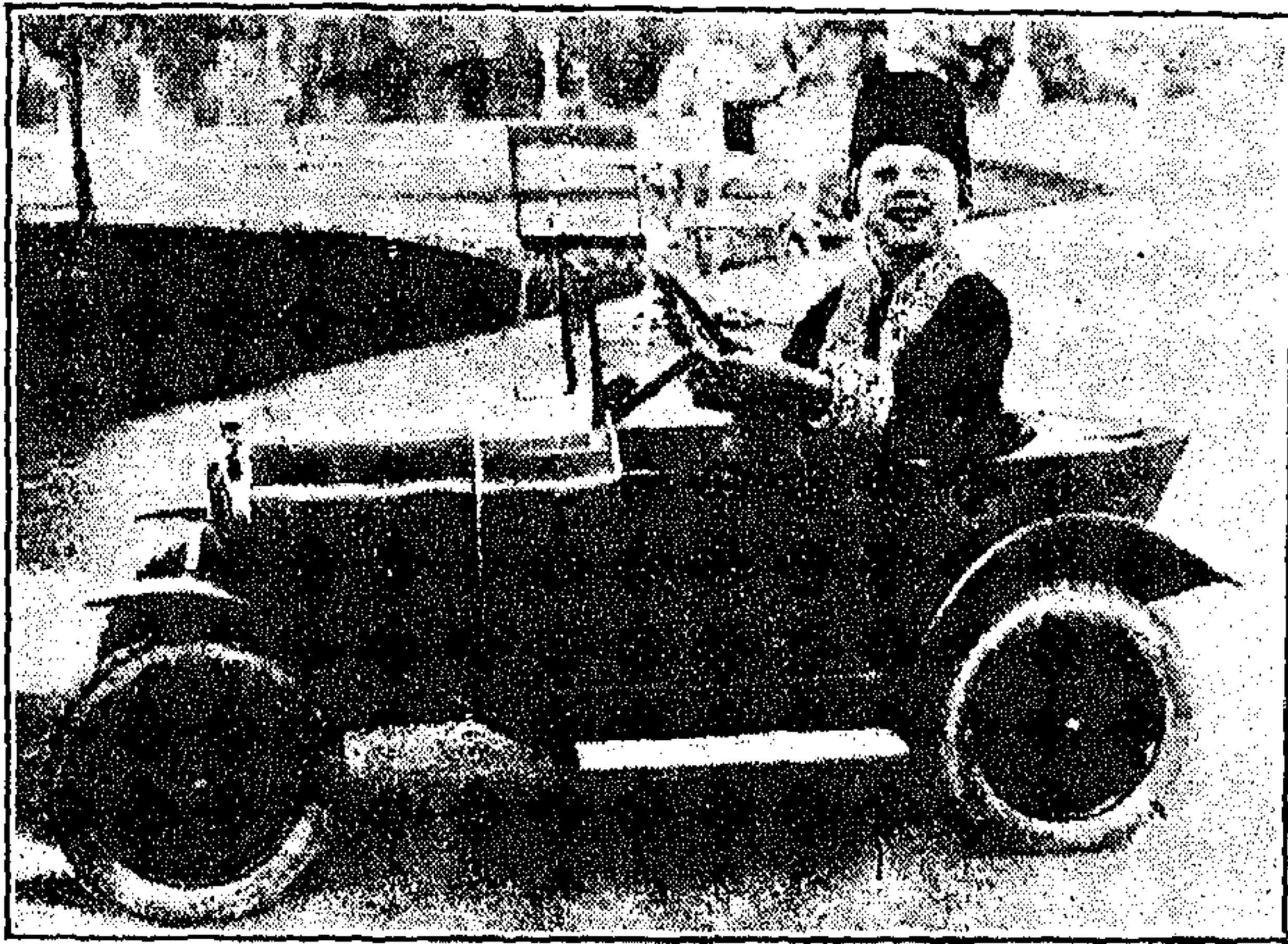
شاخصَ البصرِ ، أمامَ قصورها الشاهقة ، وميادينها الواسعة ،
وفنادقها الكبيرة ، وأشجارها الباسقة ، ومتاجرها العظيمة ،
ومصانعها الرائجة ، وحياتها النشيطة ، وإذا هو دخل قصرًا من
القصور المصرية ، هاله ما يرى فيه من أثاثٍ بديع ، ورياش
فاخر ، وآنية يأخذ جمالها بمجامع القلوب .

على أن الانسانَ في كلِّ بقعةٍ من بقاع مصرَ يجدُ تسابقًا
عظيمًا في ميدان الحياة ، ويجدُ إقبالًا كبيرًا من العمالِ على أعمالهم
وليس لخلقٍ في مصرَ أن يزعمَ الآن أنه لا يجدُ عملاً يرتزقُ
منه ، فإن وسائلَ الارتزاقِ فيها كثيرةٌ ، أليس هذا العصر هو
عصر ملكنا المحبوب أحمد فؤاد الأول ، الذي تمنى مصرُ أن
يطولَ عمرُهُ ، وعمرُ ولى عهده ؟

(٦٤)

الطُّلابُ يُناجون الأميرَ فاروقاً

أيُّها الأميرُ — تلكَ صَفَحَاتُ من المجدِ الخالدِ ، والتاريخِ المجيدِ
والذِّكْرُ العَطرُ ، سَطَرَ آياتُها البيناتِ أبوكَ الأكرمون ، جئنا
نَشرُها بين يَدَي عَصْرِ أيبك الزاهرِ ، ونستقبلُ بها حياتَكَ



سمو الأمير فاروق

السعيدة ، عرفانا لجميل السالفين ، وترتيلاً لذكركم الجميل ، وإذعاناً
لمشيئة الحاضرين ، وتغنياً بآلائهم السابغة ، لتعلم وأنت في
مقتبل عمرك المبارك ، ومطلع حياتك الشريفة ، أن على صفحتي

النيل شعباً كريماً ، يدينُ بحب من أنقذوه من الجهل والاستبداد ،
وأخرجوه من الظلمات إلى النور ، وأن الناشئين من فتياته
وفتياته ، لا يَقْلُون حباً وتمجيداً لأشبالِ ملوكِ بيتكم الكريم ،
عن آبائهم وأمهاتهم ، في تعلّقهم بأستارِ عروشِ هؤلاء الملوكِ المظفرين
أيّها الأميرُ الكريمُ — لنا في اسمك الشريفِ خيرُ قال ،
فلقد فرقتَ حين ولدتَ بين حربِ العالمِ وسلّمِهِ ، وفرقتَ حين
أشرقتَ شمسُك في ربوعِ مصرَينِ الحماية والاستقلالِ ، وفرقتَ
حين بدّوتَ في سماءنا بين حُكمِ الفردِ والحُكمِ النيابيِّ الدستوريِّ
وفرقتَ حين طلعتَ علينا بدراً كاملاً بين جهلِ الشعبِ المصريِّ
وعِلْمِهِ ، وفرقتَ حين تشرفتُ بك مصرُ بين فقرِها وثرائها ،
وكنتَ في كل أولئك بشيراً بزوالِ الضيّرِ ، وحلولِ الخيرِ ،
وكان قدومك مباركاً وسعيداً .

أيّها الأميرُ الخطيرُ ، إنّا نقرأُ على جبينك الشريفِ آياتِ
السعادةِ والهناءِ ، ونرى بين أسرارِ وجهك الكريمِ علامةَ الذكاءِ
والنبْلِ . ونحسُّ بين ملامحِ عينيك نظراً صائباً ، وحبّاً للخيرِ عظيماً
ونرى في ابتسامتك العذبةِ خيرَ بشيرٍ بابتسامِ الحظِّ في وجوه
المصريين .

أيها الأميرُ الجليلُ . استفتحنا عامنا بِذِكْرِ خيرِ الملوكِ ،
وَبَطْلِ الأبطالِ ، جَدِّكَ الأَكْبَرِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِاشَا . وهما نحنُ أولاءُ
نَحْتَمِيهِ بِسيرةٍ يُعَطِّرُ الجوَّ شَذَى عَرْفِهَا ، ويفوحُ على العالمينَ
طِيبُ أريجها . سيرةُ أيك الذي طبقَ الآفاقَ ذِكْرُهُ . وفاضَ
على مصرَ برُّه وفضلُه ، ونسألكَ بحقِّ هذا العزِّ التليدِ ، والمجدِ
الذي تتوارثونه كابرًا عن كابرٍ ، أن تنوبَ عنا في المشول بين يَدَيَّ
جلالةِ ملكنا المعظمِ ، وتعلنَ ولاءنا لذاته العليةِ وتعلقنا بعرشه
المُفَدَّى بالمُهْجِ والأرواحِ نَضْرَعُ إلى الله العليِّ القديرِ أن يقرَّ
أَعْيُنَ المصريين ببقائه وبقائك إنه سميعٌ مجيبٌ ، وصلى الله على
سيدنا محمدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ وعلى آله وصحبه وسلَّم

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
الجداول والقنوات (٢)	٤٤	تهيد	٣
الحيوانات	٤٧	مجد مصر القديم	٥
الاشجار	٤٩	مصر في العصور الوسطى	٧
القطن	٥١	العصر المظلم	٩
أشجار الفاكهة	٥٤	الفوضى في مصر وأسبابها	١١
الكتان والنيل (النية)	٥٦	مصر تشكو الى الله	١٣
الجيش	٥٨	المصريون يسألون الله الخلاص	١٥
التعليم (١)	٦٢	نشأة محمد علي باشا	١٨
التعليم (٢)	٦٤	محمد علي باشا في طريقه الى مصر	٢٠
التعليم (٣)	٦٦	الفرنسيون في مصر	٢٢
علماء أوربة في مصر	٦٩	ولاية محمد علي باشا على مصر	٢٤
البعوث العلمية (١)	٧٢	خواطر محمد علي باشا	٢٦
البعوث العلمية (٢)	٧٤	عاقبة ظلم الممالك	٢٨
الصناعة (١)	٧٧	المصريون يشكرون ل محمد علي باشا	٣٠
الصناعة (٢)	٧٩	الشورى والاصلاح	٣٢
النساجة	٨٢	الزراعة (١)	٣٤
التجارة	٨٤	الزراعة (٢)	٣٦
الحروب	٨٧	القناطر الخيرية	٣٩
قلعة الجبل	٩٠	الجداول والقنوات (١)	٤٢

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٩٣	عظمة محمد علي باشا	١٣٧	تعليم البنات
٩٦	قسوة محمد علي باشا	١٤٠	الاعمال الخيرية
٩٩	البر بالانسانية	١٤٢	استقلال مصر
١٠٢	المغفور له اسماعيل باشا	١٤٩	الدستور ودار النيابة
١٠٥	سكة الحديد والبرق والبريد	١٥٠	إصلاح الازهر الشريف
١٠٨	قناة السويس	١٥٢	الجامعة المصرية
١١١	حديث النيل	١٥٤	مصرف (بنك) مصر والشركات
١١٥	دار الكتب المصرية	١٥٧	السفراء والممثلون
١١٨	دار الآثار المصرية	١٦٠	الهيئات النيابية
١٢١	معرض الحيوان بالجيزة	١٦٣	الجمعيات
١٢٤	مدينة اسماعيل باشا	١٦٦	الفنون الجميلة
١٢٨	جلالة الملك أحمد فؤاد الاول	١٦٩	عصر مصر الزاهر
١٣١	الرخاء	١٧٢	الطلاب يناجون الامير فاروقا
١٣٤	التقانات		



